LIB.
1988

هدية الاديب
الاستاذ البير
اديب - مدير
مجلة «الاديب»
البيروتية
مع الاحترام
المؤلف

شحاده الخوري

808
Kh 91aA
c.1

الأدب في الميدان

قدم له

الدكتور عبد الكريم اليافي

cat. Jun 52

الطبعة الاولى

78201

عام ١٩٥٠ مطبعة دمشق

DURHAM UNIVERSITY
LIBRARY
OF DURHAM

مقدمة

هل الأدب غاية غير الامتاع الفني ؟ هل ينبغي له أن يحقق قيماً أخرى غير هذه القيمة التي يلتمسها وهي الجمال فيلتزم سنن الأخلاق مثلاً أوينهج سبيل الدين أويدخل غمار السياسة فيكافح الفساد الاجتماعي وينافح عن المصلحة العامة ؟ أوهل الأدب مستقل بالجملة أم هو تابع للخير ومقتبس لألاءه من نوره ؟ هذه أسئلة يختلف المجيبون عنها باختلاف نزعاتهم . ونستطيع أن نصنفهم على وجه العموم فريقين متباينين . أما الفريق الأول فيرى أن الأدب (أوالفن عامة) ينبغي أن يكون مستقلاً ، وأنه لايحقق غايته على أكمل وجه وهي الامتاع الفني إلا اذا تهيأ له هذا الاستقلال . وأما الفريق الثاني فيعتبر الأدب رسالة اجتماعية ، عليها أن تمسح آماق المحزونين وتسكن جراحهم بل أن تحدو ركب الانسانية المتقدم وتعمل على توطيد دعائم الخير والحضارة ، الأدب عند هؤلاء رسالة انسانية يحملها الأديب وهو مسئول عن أدائها .

ولكل فريق حجج يدلي بها . لنفحص من قريب رأي الفريق الأول . إن تاريخ الآداب قديمها وحديثها يؤيد أن الأدب لايبلغ شأواً بعيداً الا متى كان جناحاه طليقين من كل قيد فهو يحلق في الأجواء أويهيم في أعماق الأودية . ولذلك قد يخرج الأديب عن قواعد الأخلاق أو لايبالي الحياة الاجتماعية خيرها وشرها ، ولا يخفض ذلك من قوة الشعر أو ينقص من جودة البيان . والأمثلة كثير في الادب العربي وحده . فلم يكن أعلام الشعر العربي في الغالب

أتقياء ولا مصلحين ولا دعاة إلى الخير ، بل منهم من كان يمعن في هجر القول ويقذع حتى نجدنا اليوم نتحرج من قراءته ، ومنهم من كان يعفو باب الأمير ويرتل آي المديح كالتسبيح تملقاً ، وعلى خلاف هؤلاء لا يشفع لبعض النظامين حسن نياتهم ولا صلاح غاياتهم شيئاً عند حكام القريض وأرباب النقد .

ذلك أن جودة البيان وسحر البلاغة وفتنة الجمال لا تقوم في الأغراض والموضوعات التي يعالجها الشاعر أو الأديب وإنما في هذه المعالجة . يمكننا أن نطبق على الأدب كلمة قالها الفيلسوف الألماني « كانت » عن الفن عامة وهي : « ان الفن ليس تمثيلاً لشيء جميل بل هو تمثيل جميل لشيء ما » ، ونستطيع أن نضيف : « ولو كان الشيء قبيحاً » .

إن الأدب إذ يعرب عن العواطف ويترجم المعاني والأفكار يصوغها في صيغ وأشكال فنية ، فيبدلها بذلك بعض التبديل . انه يسكبها في قوالب جديدة أو هو « يصفيها » على حد تعبير أرسطو . وليس يعمد إلى الاعراب عن العواطف وترجمة المعاني والأفكار بأية طريقة ، إذ ليست الطرائق كلها عنده سواسية . بل ينبغي له أن ينتهي إلى تأليف متناسق وتركيب متناسب مستساغ وأن يعرض علينا نماذج وصيغاً جديدة جيدة تشتمل في صناعتها على جمال ضمني صميم . فتبدو تلك العواطف والمعاني والأفكار وراء تلك النماذج الجميلة ومن خلال تلك الأطر البديعة خالصة من اوشابها الواقعية ، متجردة عن صفتها الخام الأولى . ومن تأمل الآثار الفنية خيّل اليه كأنه في عالم جديد واقعي ومثالي معاً تتلامح منه صور ومعانٍ كأنها التقطت من الواقع ولكنها

ليست لدى الحقيقة الا بنات الخيال الانساني ، أي خيل إليه كأنه يشارك في إنشاء ضرب من الحرية المبدعة ، ومن هنا ينشأ شعور بالارتياح والصفاء الباطني هو الجنى الشهي يجنيه من يطوف في خمائل الفن .

ومتى استطاع الادب أن يحمي حريته واستقلاله تيسر له عندئذ أن يدعم مكارم الاخلاق وأن يعود بالخير على المجتمع ولكن عرضا وبطريق غير مباشرة . ذلك أن الأدب بما يلوح به من كمال في التركيب وبما يعرضه من جمال وإتقان متراقبين في الصيغة يستميل اليه النفوس ويعودها حب الكمال والرغبة في الاتقان فهي تمارسها فيه وتزاولها من خلاله . ثم إن الادب يصرف عن وجهة النظر النفعية ، لأن من صفات التذوق الفني تنزهه عن المآرب وخلوه من اللبانات . أوليس « العارف » في الفن يفضل اللوحة الفنية والقصيدة الجميلة تصوران زهراً بديعاً أو ثمراً شهياً على مادلتا عليه في الطبيعة مثلا ؟ ثم ان الآثار الادبية القوية تغدو مثابة رودها النفوس وتلتقي في جوها الروحي وتتأثر بما تتضمنه من إيقاع ، فتختلج معاً بتلك الحياة التي تداخلها ، ولذلك كان الأدب وسيلة جمع وتوحيد فوق كونه وسيلة رفعة وتهذيب . ولكنها وسيلتان غير مباشرتين (ولا يخفى تأثير الشاعر دانتي في الوحدة الايتالية ولا مكانة شكسبير في المدنية الانكلوسكسونية) .

هذه جملة ما يمكننا تعقبه واستخلاصه من آراء الفريق الاول . على ان هذا التحليل يسلمنا بطبيعته إلى تأمل آراء الفريق الثاني . ذلك اننا قد تبينا في ماسبق مكانة الادب واجتلينا مدى تأثيره ولكننا اهملنا عنصراً منه مهماً وهو عنصر الافكار والمعاني والعواطف ذاتها ، فهي تؤلف جواً فكرياً موحياً ،

والادب يؤثر بها ولو بمجرد الايحاء . وبهذا تزداد مكانة الادب في التوجيه ويتضح خطره . هو سلاح ماضٍ ، فلِمَ لانعمد اليه في تبديد الفساد والظلام وافاضة الخير والنور ؟ لاجرم أن الأدب يقتضي مواهب خاصة ويستلزم صناعة ودربة ، ولكن متى توافر ذلك وجب على الاديب ان يفطن لرسالة الادب ويسعى لتأديتها ، ولا يجوز له أن يقف في منتصف الطريق ، ولا ان يبني بيد ويخرب بأخرى ولا أن يشوّق بالعَرَض المتألق ويسيء بالتشويش ، ينبغي أن يزول التضارب بين عناصر أدبه . وقد يحول هذا التضارب إن وقع دون اكتمال المحاسن في الأدب . إن كبار الفنانين والأدباء إذا عظمت آثارهم جمعت بين الجمال والخير . وكلما عمقت قيمة الجمال شفت في عمقها عن قيمة الخير ، حتى كأنهما يجريان من ينبوع واحد . يقول لابرويير : « إذا سمت بفكرك قراءة كتاب وأوحت اليك بالنبل والشجاعة فلا تلتمس في الحكم على الكتاب معياراً غير هذا ، واعلم انه جيد وقد كتبته يد صناع . ويقول غويو : « إن الشهادة الممتازة على الاثر الفني هي أن تشعر بعد قراءته أنك قد ارتفعت وسموت فوق ذاتك ، لا انك انخفضت او تدنيت » .

ولا عبرة لما يستشهد به من مجون بعض الشعراء الكبار واقذاعهم وتملقهم الوضيع ، لقد عاشوا في ظروف اجتماعية يتنازعها التناقض ، فخضعوا له ولم يحاولوا أن يتنبهوا فيتجاوزوه ويوجهوه . عاشوا في حواشي الأمراء والمترفين وعلى موائدهم ، وكان هؤلاء يحوّلون قطرات العرق التي تنضح جباه الكادحين في الأرض جماناً يحلّون بـــه ترائب إمائهم فكانت أبصار أولئك الشعراء تشخص إلى ذلك الجمان وترف على تلك الترائب دون أن تنفذ فتتلمح مصدر

الثراء وترتاع للجهود الكبيرة تضيع عبثاً في غير مصلحة المجموع . وقد لها أولئك الشعراء في مجونهم واقذاعهم ومديحهم وصدفوا عن رسالة أدبهم . ولو أنهم أخلصوا لها لغدا أدبهم أقوى وأنبل وشأنهم أعلى وأفضل . هذا ابونواس يكاد يصحو في آخر أيامه فتتقطع نفسه حسرات على تفريطه . اليس هو القائل:

« لو صح عقلي قل اشباهي اجـل ولم ألهُ مع اللاهي »

والقائل أيضاً :

« ومنزلة خلقت لهـــا جعلت لغيرها شغلي » . . .

على أنه إن جازت المناقشة حول استقلال الأدب وحريته اوتوجيهه في المجتمعات المتقدمة ووجدنا اختلافاً بين المفكرين في هذا الشأن ربما يرجع في أصله إلى تناقض النظم الاجتماعية عندهم ، فلا يجوز مثل هذا النقاش في مجتمع ناشئ يحاول أن يتماسك وان يدرأ الأخطار التي تحدق به فتحدق من أجل ذلك بأدبه . إن لفظي الاستقلال والحرية هنا ليسا في مواضعها لأن الاستقلال والحرية قيمتان مخصبتان منتجتان ينبغي ان ينتهيا الى الابداع والخلق والخير لا الى التهالك والفساد فها يتضمنان التوجيه أي الانتاج النافع المفيد ، وبهذا الاعتبار يكون الأدب الموجه هو الأدب المستقل الحر والأدب الذي يتهالك هو الادب المقيد العبد ، إذ لاقيد ولا عبودية في الابداع والانتاج بل فيهما التغلب على القيود والاغلال ، قيود المادة وتناقضاتها ، واغلال الضعف والعقم . واذا اصغينا الى ادبنا الحديث سمعنا فيه أصواتاً ضعيفة لاهية أو منافقة أو مقلدة هي زبد يذهب جفاءً وسمعنا أيضاً من خلالها تمتمات ونأمات أعمق غوراً وأندى جرساً وأصل تعبيراً تتموج بالآلام المكظومة وتتأرج بالآمال القوية العارمة ،

تتحسس قضايا الشعب وتتلمس بوارق الاصلاح . وما أشبه ادبنا الحديث بهذه التعاشيب والازهار تنبت في الارض المجدبة لايتعهدها غرس ولاتكلؤها رعاية فبعضها فاسد وبعضها ذكي ، ولكن هذه الأرض المهملة محتاجة الى فئوس قوية تقلب أعماقها وتنقب عن الينابيع الثرة في باطنها وتبعث مكامن القوة والخصب في ربوعها ، حتى تذكو خمائل الفن ولو بعد حين في جملة ما يذكو من المجتمع.

• • •

نستطيع بعد هذا التمهيد أن نقدم الى القراء هذا الكتاب الجديد المفيد في الأدب ، ينضوي مؤلفه في عداد الذين يرغبون في توجيه الأدب وفي اتخاذه ذريعة للكفاح من أجل الخير والحرية والتقدم . فلا غرو اذا وجدنا بحثه الادبي يواكب بحثه الكفاحي ولمحنا أسلوبه السهل الرائق يشف عن اخلاصه وحماسته . يدرس المؤلف بدياً « أدب التشاؤم » ثم يتناول بعد ذلك « أدب الكفاح » ثم يدعو في الخاتمة « نحو أدب جديد » . وهو في جميع مباحثه هذه يصدر عن فكرة موجهة سافرة واضحة وهي أنه ينبغي أن يدخل « الأدب في الميدان » ميدان النضال الاجتماعي والانساني وان يمد لحياة اجتماعية انسانية راقية يزول منها استغلال الانسان للانسان وتتلامح في جوانبها انوار الحضارة .

وهو يختار في كتابه بعض الامثلة البارزة التي تؤيد مايذهب اليه فيدرسها دراسة متفهمة ، متفحصة ، مفيدة ، ونحن ندع القارىء يجني بنفسه فوائد هذه الدراسة ويقدر مزاياها العديدة ولكننا نحب أن نشير إلى بعض الامثلة الواردة في غضون الكتاب . يدرس المؤلف في أدب التشاؤم إبا العلاء ، وشوبنهاور وجان بول سارتر ، ويرى ان هذه الامثلة الثلاثة ثمرة من ثمرات الأزمنة

التي نشأت فيها . ويستشهد على ذلك بكلمة للاديب الكبير طه حسين (ص٢١) يشير فيها الى مدى تأثير المجتمع في أدب الأديب وتفكير المفكر . وحقاً ان تأثير المجتمع كبير في المرء ، ولكنه يصعب بل يتعذر ان نتعرف تفكير المفكر أو أدب الأديب من دراسة عصره أو من حياته هو نفسه . فليس صحيحاً أن الفن « يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء » . ذلك أن بين الفن وحياة صاحبه ثم بين الفن والعصر علائق متعددة مشتبكة . وليس الأدب بوجه العموم صورة تشف دائماً عن نفس الأديب ولا عن المجتمع الذي عاش فيه . وبهذا الاعتبار قد نلقى في العصر الواحد والمجتمع الواحد المتشائم والمتفائل وهذا أدل على أثر « المفعول الجدلي » في المجتمع كما يقول الجدليون . وقد عاش في عصر أبي العلاء الرئيس ابن سينا وهو متفائل يرى ان « الخير مقتضى بالذات ، اما الشر فمقتضى بالعرض » . وكان مع شوبنهاور في جامعة برلين رصيف له لقي نجاحاً اكثر منه وهو المتفائل هيغل ؛ ثم ان شوبنهاور لاتكاد تنكشف عيشته التي عاشها عن تشاؤمه الفكري ، وربما كان اكبر أسى لقيه في حياته لما بدأ تدريسه في جامعة برلين فلم يلقَ الا اربعة طلاب عنده على حين كانت غرفة هيغل في الساعة نفسها تغص بالمستمعين ، وكذلك بجانب الوجودي المتشائم سارتر نجد الفيلسوف الكبير لويس لافيل يتلمح الخير والكمال في كل شيء . واذا كان للعصر في الفن والتفكير فعل الكيمياء في المادة فانا لنعجب لِمَ لايكون له نتائج متشابهة ولا يكون المفكرون في العصر المضطرب متشائمين جميعاً ؟ ولكن المؤلف لايقف عند هذا الرأي بل يشير في مواضع متعددة من كتابه الى نشوء تيارات أدبية وفكرية مختلفة باختلاف التركيب الطبقي للمجتمع في العصر الواحد . وهو يشبه شوبنهاور بأبي العلاء وهذا

صحيح ويرجع تشابهُ المفكرين إلى تشابه عصريهما، وفي هذا انتباه وجيه الى بعض العوامل المؤثرة ولكنه لا يكفي لشرح جوانب الشبه جميعها. فلا بد من الاشارة إلى اطلاعهما على فلسفة الهند وتأثرهما بها ولا بد أيضاً من الانتباه الى مواهبهما وحياتهما الخاصة. ولا يخفى انه مهما اتسع نطاق التأثير الاجتماعي فلا يجوز إهمال الجانب الفردي. ولم يهمل المؤلف الاشارة الى هذا الجانب في بعض الاحيان.

على أن المؤلف يوسع معنى التشاؤم فهو يعني به كل تفكير لا يقابل الحياة الاجتماعية وجهاً لوجه ولا يكافح في حلبتها، لذلك لا غرابة اذا ذكر بين المتشائمين الشعراء اللاهين المقبلين على الدنيا، والصوفية ولو «صرح» بعضهم «باطلاق الجمال» وبشمول الخير في الكون (انظر ديوان ابن الفارض وكتاب الانسان الكامل للجيلي).

وهكذا يستبين ان الكتاب محبوك الخطة، متآخذ الأجزاء، متسلسل العناصر، قد فكر مؤلفه فيه ملياً، الا أن المؤلف قد اعتمد احياناً نادرة على كتب لم تتوخَّ تحقيق الألفاظ ولا تدقيق المعاني. نجد مثلاً (ص ٤٤، ٤٥) في تقدمته لابيات أبي العلاء: «شر على المرأة من حمامها...» مايشعر بقراءة حمامها بفتح الحاء وتشديد الميم مع ان امعان النظر قليلاً يوجب كسر الحاء وتخفيف الميم.

وبعد فمن صفات الكتاب الجيد أن يثير التفكير وأن يحفز اليه. و«الأدب في الميدان» من هذا الطراز. وقد آن لنا الآن أن نرافق المؤلف وندخل معه في «ميدان» الكتاب.

عبد الكريم اليافي

أدب التشاؤم

وآخر الدهر يلفى مثل اوله
والصدر يأتي على مقداره العجز !

أفاقت أمتنا العربية العزيزة من غفوة ، هي السجن المظلم اوالقيد الثقيل ، فألفت نفسها في حال وهن وضعف في شتى النواحي ، العملية منها والفكرية . ذلك سجن لم تختره ، بل أقحمها فيه معتدٍ غاصب ، وذلك قيد لم تقبله ، ولكن متسلطاً باغياً كبلها به !..

لقد آن لأمتنا المجيدة أن تتمرد وتبعث قواهـــا طليقة ، وتشد صفوفها كبنيان مرصوص ، وتندفع سيلاً جارفاً الى دنيا مجد وفخار ، وتحمل من جديد بعد ان حملت قديماً ، قبل ألف عام ، مشعل الحق والمعرفة والحرية .

والحياة الفكرية ، كالحياة العضوية اوالاجتماعية ، تتبع سنة النشوء والارتقاء ، وتستطيع ، رغم تأثرها بوقائع الحياة المادية ، أن تعمل بدورها في دعم التطور المادي ، ودفع التاريخ في ذلك المجرى الصاعد الذي يترسمه البشر مناضلين لتحقيق أهدافهم السامية ومثلهم العليا .

وينبئنا التاريخ ، القريب والبعيد ، ان الأدب ، بما له من القدرة على إثارة الذهن وبعث الايمان وشحذ العزيمة ، كان قوة من القوى المحركة

للجماهير، الدافعة الى الرقي والتقدم. وليس عجيباً ان يكون الادباء دعاة الاصلاح الاولين، وهداة الناس السابقين، لأنهم، بما يملكون من روعة الكلام ونصاعة البلاغة وفتنة البيان، يذيعون مبادئ الفلاسفة والحكماء، ويبسطون افكار الباحثين والعلماء، ويرقون بجمهور الناس الى معرفة اوسع واسمى، ويبعثون فيه الحمية والنشاط، ويدلونه الى السبيل القويم لاصلاح شأنه وتقويم أمره. والفكرة، إذا غزت العقول وولجت القلوب استحالت قوة مادية لاتقف دونها عقبة كؤود، ولا يعيق تحققها سد منيع...

وان من المكانة العظيمة التي احتلها الانسان، اويشرف على احتلالها في سلم القيم، ومن التقدم الهام الذي احرزته البشرية الصاعدة في شتى نواحي حياتها، المادية والاجتماعية والفكرية، ومن الوثبات القومية والانسانية التي تحققت في العصور الاخيرة، لخير شاهد على قدرة الانسان على ابتغاء الكمال، واصدق دليل على فعالية الأدب الحي الذي كان أبداً، حادي الافراد والشعوب بلهَ الانسانية في كفاحها الدائب، وسيرها الحثيث نحو تلك الغايات السامية.

فالأدب وسيلة من وسائل البناء شريطة ان تتصل جذوره بالحياة، بالارض والعاملين في الارض، وتتجه فروعه نحو حياة فضلى، ينال فيها الناس حظاً أوفر من النفع والحرية والسعادة.

وأزعم أن من حقي أن أسأل، ونحن العرب في دور بالغ الخطورة، لانجد حولنا الا عدواً متربصاً، ينتقص حريتنا وينهب ارزاقنا، ولا نلقى لدينا سوى اقتصاد أشل، واوضاع اجتماعية عاجزة مضطربة، وحياة

فكرية سقيمة عليلة ... نتلهف ، وحق لنا ذلك ، الى ما يبعث فينا الرجاء ويرشدنا سواء السبيل ... أسأل ادباءنا ، أرباب القلم وسادة الشعر والنثر . هل نهض ادبنا العربي بتلك المهمة الكبرى ! ؟ .

لقد تساءلت وما زلت اتساءل : كيف تستطيع الكثرة الغالبة من ادبائنا التلهي بما لادري من فنون القول ... ومن يتلهى في مثل حالنا كمن يخز وخزاً ، بل يطعن طعناً ! — يطعن كرامة الوطن وأماني الأمة .

تراهم منصرفين الى الماضي ، موغلين فيه ، يبحثون في أطوائه عن قصة طريفة ، اويحيون منه خرافة قد اندثرت منذ زمن بعيد . . . اوتراهم يزحفون الى الغرب ، غرب القرن الماضي المشرف على الفناء ، يتلقفون من موائده المترفة أجف الزاد وأقله نفعاً وأعسره هضماً ، رغماً عن مجلة المختار « ما يهضمه القراء ! » . أما عقولنا فتظل جائعة لأنها تأبى ان تتغذى الا مما تنبته تربة أرضنا وتسقيه مياه انهارنا .

ادباؤنا يصنعون كل شيء الا ما كان عليهم ان يصنعوا ، فكأنهم ليسوا من ابناء هذا الكوكب الذي نعيش عليه ، وكأن كل ما يهم الناس ، جموع الناس ، من مشاكل وخطوب ، وما ينتابهم من آلام واتراح أوما يصيبون من أفراح ومسرات ، اوما يساعد على ترقيتهم وتهذيبهم ... ليس جديراً بالنظر والحديث .

الزمن في عصرنا ينحدر انحدار الشلال ، ولايجري جري الجداول ... إننا مسوقون الى السير الحثيث ، الى مجاراة الريح . ومع هذا يقبع ادباؤنا في حصونهم الواهية فريسة للتشاؤم والحيرة ، أويهجرون القيم الحية

المتصلة بالنشاط الانساني الى تصورات وهمية وجدت لها مقراً في خيالهم الرحيب ، اوينصرفون الى التلهي بالرموز والمعميات ، تائهين في مجاهل الغرائز والنزوات . . . انهم شاكون باكون ، اوساخرون ضاحكون ، وهم في أفضل الحالات ، ينصرون التخاذل والهزيمة ، ويشدون الناس الى الرجعية المقيتة ، ويقيمون السدود في طريق تحقيق انسانية الانسان .

أترى هذا ما نتوق اليه من بعث للعزائم ، وشحذ للهمم ، وتقوية للنفوس ، وتوجيه لابناء الشعب ، لتحقيق العزة والسعادة ، واستكمال الحياة الوطنية الصحيحة ؟ !

حَرِيٌّ بنا ، إذا شئنا بناء غدٍ مشرق رائع ، أن نتخير أدباً واضح المعالم بَيِّن الهدف ، نجعل بينه وبين الفن والعلم والفلسفة نسباً وقرابة ، ونقيم بينه وبين الحياة والناس آصرة متينة . نريد أدباً يؤاخي بين المعنى والمبنى ، ويجمع الجمال الى الحقيقة ، ويؤالف بين الواقع والمثل الأعلى .

اتجاه الادب :

أن الأديب أياً كان اتجاهه ، لايستطيع ان ينسلخ عن الواقع المادي والاجتماعي الذي يعيش في ظله ، حتى هؤلاء الادباء المنزوون في ابراج عاجية ، حاسبين انهم في منأى عن مشاكل الحياة الانسانية ، ليسوا في الحقيقة الا فريسة الوهم الجـــامح ... لانهم في انعزالهم عن المجتمع ، وانكفائهم على ذواتهم ، إنما يتأثرون بالواقع ، التأثر كله ، فهو يخيفهم اويكدرهم حين تلمع بروقه وتهب عواصفه ، فهو ذاته إذن ، الدافـــع الأول والاخير الى هذه العزلة القنوع !

وانه لمن العسير انْ نحاول تفهم انواع الادب وادراك كافة اتجاهاته، دون ان نطلع على اساليب العيش لدى البشر، وعلى الصلات المادية والثقافية التي تربطهم بعضهم، وعلى الطبقات التي يأتلفون فيها، والمراحل التي يقطعونها في سيرهم الحضاري.

فمنذ زمن بعيد، والخلاف قائم على امتيازات الحكم والسلطان ووسائل العيش والعلم فمن ملكها نعم بها، ومن حرمها كافح من أجلها، ونافح للحصول عليهـــا. ولعل ادراك هـــذا الخلاف الذي ظهر كثيره بين الشعوب والدول، وبرز قليله في أمة واحدة بين فئاتها، خير وسيلة لتعليل كافة الظواهر المادية والفكرية في المجتمعات البشرية.

ولذا كان طبيعياً أن ترضى جماعة من الادباء، فيمن يرضى من الناس، عن النظم والأوضاع السائدة، وان ينقم جماعة من الادباء، فيمن ينقم من الناس، على هذه النظم والأوضاع.

فاما الجماعة الاولى فتنصرف عن نقد الحياة الانسانية، وما يعتورها من ظلم وفساد، إلى مالا ادري من سفاسف القول والحـــديث عن العواطف والاهواء والنزوات، اوالهرب الى الطبيعة، والتلهي بوصف البحار والانهار، والتغني بالرياض والازاهير.

وفي سلك هـــؤلاء ينتظم بعضٌ، من ذوي النفوس الصغيرة الذين يشبهون الهرر التي تنعم بما يلقي اليها من موائد المترفين، فانهم يخشون الصراحة ولو في الحق، والمطالبة، وإن بالعدل، والمناداة حتى بالاخاء، فينضمون الى تلك الفئة، يلوذون باصحاب الجاه، يلتقطون الفتات الرخيص من أيدي السادة المتسلطين!

الى هذه الزمرة ينتسب ادباء الصوفية والزهد والمديح وأصحاب المقامات عند العرب في العصور السابقة، وادباء الروحية والرمزية وسائر المذاهب الادبية والشعرية المستحدثة في الادب الاجنبي، في كافة اوطانهم، ومختلف ازمانهم.

واما الفئة الثانية فتعمد الى النقد، يحدوها اليه النقمة على الواقع، واليأس من اصلاحه، فينتقدون النظم القائمة والاوضاع السائدة، ولكنهم قد ينتهون الى القنوط والتشاؤم لم يدركوا التطور الجاري على حياة البشر، ويؤمنوا بقدرة الجماعات على الانتقال من حالها الى طور افضل وارقى. وهكذا ينغمس بعض الادباء في الالم، ويبدو لهم ان الحياة شر وفساد وان الانسان مفطور على الرذيلة ولايرجى منه صلاح... وان الموت خير من الحياة!..

وينضم الى صفوف هؤلاء اليائسين المتشائمين، الادباء المنتمون الى فئة اجتماعية ذات امتياز وسلطة، ولكنها صارت الى حال أخذت معها تتزعزع اركانها، وتندثر قوتها، ذلك ان فئة اجتماعية أخرى صاعدة، اكثر من الاولى قوة وامضى عزماً، قد شرعت تسدد لها ضرباً ساحقاً، مما يبعث في نفوس افراد الفئة الاولى الخشية والخوف، واليأس والقنوط، ويحملهم على التبرم والتذمر... فيحنقون على الانسان، ويذمون الحياة، ويدعون الى الفناء، إذ لعل في هذه الفكر السوداء ما يكبح جماح الخصوم ويثأر لهم من الدهر!...

ومن اليسير ملاحظة الظواهر في العصر الحديث في الغرب. فاننا نرى ان تشاؤم شوبنهاور، اديب الجرمن، مصدره تدهور طبقته التربة،

سيدة المال والحكم، وتلقيها ضربات قاصمة قربتها من الانهيار. فليس عجيباً ان يسخط على الحياة، ويحسبها ألماً وشقاء، ويبشر بالموت، ويدعو الى الرحمة والعطف! ونيتشه، فيلسوف الالمان واديبهم، الداعية الى التفوق العنصري، والمدافع العنيد عن الاقطاعية البروسية، قد يئس من الناس وذمهم جميعاً، وحقد على النساء والانكليز والبقر ايضاً! ولذا سما بخياله الى انسان اقوى واسمى «السبرمان» يلوذ به من جموع الالمان المطالبين بحقوقهم المسلوبة، وبنصيبهم من الوطن، وحقهم في الحياة الكريمة الحرة.

وعلى هذا نقيس الآداب الهزيلة الناشئة على جنبات نظام الاستثمار والاستعمار في هذا العصر، كأدب كفكا وجون بول سارتر في فرنسا، وميلر في امريكا... فان هؤلاء جميعاً، بالاضافة الى ادباء الرمزية والروحية ينفرون من المجتمع الانساني الى الطبيعة، ويحتمون من وقائع الحياة باجواء روحية صوفية، ويضفون على الانسان حلة الشر والمكر والخداع، ويسيؤون الظن بالمرأة، ويحتقرون الجهد البشري، ويفاخرون العقل والوعي بالاهواء والشهوات.

لعلهم يحسبون أن باستطاعتهم أن يقوا هذا العالم المشحون بالمتناقضات والمتداعي للسقوط والزوال، وهي النتيجة التي سيؤول اليها عاجلاً اوآجلاً، فيسعون لانشاء سد من الافكار والآراء الرخيصة، وصنع سلاح من المبادئ العقيمة، كما ينشئ سادتهم، أرباب الصناعة والحكم سوراً من الارهاب والبطش، ويصنعون الاسلحة الفتاكة المدمرة لمحاربة الجماهير الطامعة في العدالة والحياة الشريفة، والشعوب الطامحة الى الحرية والسيادة الوطنية... ولكن ما اوهن هذا السور وأفل ذلك السلاح... لقد انبأ التاريخ ان الحرية لم تنازل يوماً الاستبداد، ولا

الحق نازع الباطل ، الا وكان النصر حليف الحرية والحق !.

هذا هو الأدب الأسود الذي شئت أن احاول تبين اسبابه واستكناه بواعثه ، وملاحظة مظاهره ، مؤيداً ذلك بأمثلة عنه ونماذج منه ، ويقيني ان الاطلاع عليه يحمل على النفور منه والعزوف عنه ، لاثره السيء في النفوس ، بما يثيره فينا من الحزن واليأس ، ولدعمه السوء في المجتمع بابدائه القنوط من اصلاحه ، والرقي به . ولعل هذه الدراسة المتواضعة تكون مقنعة لبعض من متأدبينا الذين ما زالوا مغترين بآداب النكسة اوالهبوط او الجمود ، في الغرب ، مشدوهين باشكالها الشاذة ، مولعين بأصباغها الزائفة . . .

وعلة التشاؤم في الأدب ، من الناحية الفكرية ، تفسير مغلوط لفساد الواقع ، وتعليل المشاكل والخطوب الاقتصادية والاجتماعية تعليلاً نفسياً وخلقياً أودينياً ، ويستتبع ذلك ضعف الثقة في العقل البشري ، وقدرة الانسان على تبديل الأوضاع المادية ورفعها الى مستوى أرقى ، وعدم الايمان بالتطور ، سنة الكون ، الذى يلحق بكافة الكائنات والنظم والمؤسسات . . .

ولكن زوال ذلك الخطأ في التعليل والاعتقاد . . . يؤدي ، بصورة لاتحتمل الشك ، الى أدب ثورة وتفاؤل ، أدب كفاح وأمل ، يهدف الى تحقيق تطور يقوض النظم البالية التي أصبحت ذات شر وفر ، وخير نزر ، وغدت عبئاً باهظاً يثقل كواهل اصحابها وينوء بحملها جمهرة الناس ، لاتصافها بالاثرة والاستغلال ، والسامها بالارهاق والتحكم ، ويبغي اشادة عالم جديد ، يقوم على اسس من الحرية والعدل ، يوفر للناس حياة أسعد وعيش أرغد !

هذا هو الأدب الجديد ، أدب الكفاح الوطني والاجتماعي والانساني، يمجد الانسان والعقل ، ويؤمن بقدرة البشر على تنظيم مجتمعاتهم على اركان وطيدة من العدالة والمساواة والاخاء، ويرفع الجماهير باحترامه لها، وتعليمه إياها السعي الدائب والنضال العنيد لبناء غد مشرق رغيد يجد فيه كل انسان انسانيته الحقة .

ويمكننا ان نلمس الفارق الشاسع بين هذين النوعين من الأدب ، بين الظلم والنور ، بالاشارة الى انقلاب الاديب العربي الكبير عمر فاخوري، وانتقاله من صف الادباء الحائرين المتشائمين الى صفوف المتفائلين الاخيار ، الذين تعمر نفوسهم الثقة ، وتزخر قلوبهم بالايمان : بالانسان ، والعقل ، والخير ...

وقد كان هذا الانقلاب مبدأ تطور عظيم طرأ على الادب العربي كافة ؛ لان أديبنا الخالد قد وضع حجر الزاوية في ادب الطليعة الذي أخذنا نشهد مواكبه تتالى في طريق الحرية ، بجرأة وعناد لخوض معركة الحق ، واشادة أدب حي وفن صحيح .

لقد كان اديب لبنان والعرب ، منذ البدء ، مناضلا في سبيل الاستقلال والحرية ، وكانت اولى مؤلفاته « كيف ينهض العرب » ولكنه لم يكن قد اكتشف بعد ، صراط الكفاح الوطني والاجتماعي الصحيح ، فقال في « الباب المرصود » وفي قوله ألم مرير ونقمة صاخبة : « ترى ماذا يراد بنا ؟ وهل لوجودنا غاية ». وخيل اليه ، ولم يكن ثمة هدف اجتماعي أو غرض إنساني يشغله ويستأثر باهتمامه ، أن في الفن عزاء وسلوى فقال « أعوذ بفني إن في الفن عزاء وسلوى » ولكنه مع ذلك ادرك القنوط ولم يجد في الفن المتألق صفاء ونوراً ، والادب البعيد عن الحياة والاحياء ، أمنيته المنشودة فقال يبدي يأسه بصورة جلية :

« اني لاوثر كل متشائم سوداوي في الحياة على كل متفائل يرجي الخير منها » وتاق الى الضحك يخفف به عنه الكآبة الطاغية : « إنا لفي عصر نظلم الذين

ينعمون علينا بالضحك إذا جعلناهم في مرتبة دون مرتبة باستور وامثاله من المحسنين»

ولكن عمر فاخوري، المتقد ذكاء ونبوغاً، كان يشعر بشيء غامض، ويلمح، من بعيد، نوراً وهاجاً، فقال ساخطاً، و كأنه يتهيء لخوض غمار المعركة، ينعي على الادب جموده وعلى الادباء خذلانهم: «ان ادبنا مشغول بما لا أدري عن تمثيل الحياة وتصوير اخلاق الاحياء، أدب لفظي لا أدب حي».

وأخيراً فك الرصد، وتعرف عمر الى جماعة الاحرار الذين دعاهم: «مدرسته الجديدة والاخيرة» فاهتدى بواسطتهم الى أدب حي، يستمد مياهه الثرة من ينبوع الشعب، الحقيقة الخالدة، وينصب في خضم الانسانية، خيراً وجمالا وصفاء. وعندئذ فقط آمن بقدرة العقل على كشف اسرار الطبيعة، واعتقد بان المجتمع البشري ليس ركاما من احداث وافراد تشيع فيه الفوضى وتسوده الصدفة بل إن له قوانين تحركه في تطوره الدائم الصاعد.

وهكذا انتقل عمر فاخوري، الى مرحلة جديدة في انتاجه الادبي الفني إذ ربطه بالحياة حياة البشر البسطاء وتوجه به الى شعبه اللبناني خاصة والعربي عامة، ذلك الشعب الذي أحبه عمر من صميم فؤاده وبكل قواه. وقد عبر عن منحاه الجديد بقولته المشهورة: «هل كان الاديب او الفنان الا رجلا من أمة وعضواً في مجتمع». وفي هذا العهد كانت «لا هوادة» و «أديب في السوق» و «الحقيقة اللبنانية» ...

وفي مطلع عمره الجديد قال: «انني اليوم سياسي متطوع كما كنت من قبل اديباً غير «مسلكي» او «ممهن» واضاف: «وأظن اني قد أفدت من هذه الحرب ـ والا لم أفد شيئا ـ أمرين: أولهما اني تعودت بل ارجو ان اكون قد تعودت ان اهجر ذاتي مدات طويلة، وثانيهما انني اصبحت بباب مدرسة لا هم لي فيها الا ان اتعلم كيف افكر تفكيراً صحيحاً»

وزادته الايام يقينا فنمت فيه ارادة السعي لتحقيق المثل الاعلى ونزل الى السوق يضحك مع الضاحكين ، ويتألم مع المتألمين ويكافح مع المكافحين، وتراءى له التاريخ على نحو جديد فلم يعد في نظره كالدولاب يدور على نفسه او كالدوامة تهبط وتصعد او كرقاص الساعة يتذبذب بمنة ويسرة ... لان عمر الخالد كان قد تخطى عهد الطفولة في تفكيره فلم يعد يطرب لهذه التصورات التي ان اتصفت بشيء من الطرافة والرونق فانها لتعوزها الحقيقة والصحة وينقصها السمو والضياء ... لقد تراءى له طريقاً صاعدة يتفتح فيها الذهن على المعرفة ويظفر الانسان بالحرية وتصل الافراد والشعوب بالاخاء... قال: « ما العمل اذا كان ثمة مثل اعلى لحياة الافراد والجماعات ينعمون كلما قطعوا شوطا نحو تحقيقه باكثر ما يمكن من الخير والصلاح والطمأنينة ، وقد استهوانا هذا المثل الاعلى وشغف قلوبنا ، فنحن راضون ان نترسم خطى القافلة المباركة المهدية الهادية التي تقود البشرية الى ذلك الهدف الاسمى منذ فجر التاريخ قافلة الرسل والحكماء والمصلحين » .

وقد أعطى عمر المثال والقدوة وسخر بلاغته وبيانه لاسعاد مواطنيه واعلاء شأن بلاده. واندمج في الجماهير هادياً ؛ واحيا الرجاء في نفوس المعذبين والمظلومين والتعساء الذين اتصل بهم وتحدث اليهم : « الاديب حقاً هو من كان على اتصال دائم يقظ بهذا الوجود الذي يحدث عنه وبهؤلاء الناس الذين يتحدث عنهم اليهم »

وهكذا اصبح اديبنا الكبير يمتاز بالفكر الواعي الذي يصوغ الاهداف الوطنية والانسانية السامية ويؤلف بينها والصوت المدوي الذي يدعو الى التقدم والتحرر وينصر الحق بكل قوته ... قال « يقولون لنا هي القوة التي لا قبل لنا بها كمن يشكو ضيق صدره « هو الجبل لا مزحزح له » بل كمن يتأهب ليغط في نومه « هو القضاء فمن يدفعه » . وكأني بهم يخشون ان لا نفهم على

أحسن وجه واكمله ضرورة الرضى والقناعة والخنوع والتسليم فهم يأتوننا ببرهان لا يقطع قطعاً بل بخز وخزاً . يقولون لنا « ان العين لا تقاوم المخرز » اما التاريخ فقد عرف حواراً يدور بين تلك العين وذلك المخرز ... دائماً كان ينبت للعين ظفر وناب . »

وهكذا تمت ولادة الاديب الوطني والانساني العظيم ؛ عمـــر فاخوري ، طاب ثراه وخلدت ذكراه ، يوم كانت جحافل النازي تحـاول عبثاً ، القضاء على حرية الشعوب وحضارة البشرية ، واخماد جذوة المقاومة عند المدافعـين الاشداء عن بلادهم واوطانهم . فهب عمر ، اللبناني العربي ، يدافع فيمن يدافع عن حرية بلده ، وأمن مواطنيه ، ويناضل فيمن يناضل ، بفكره الجبار وأدبه الرائع عن الحرية والعدالة وكافة القيم السامية في الدنيا .

والان بعد ان عرضنا الى منشأ التشاؤم في الادب ، وبحثنا بواعثه المختلفة سنعمد الى دراسة تطبيقية نستمدها من أدبنا العربي أولا ، عن ابي العلاء الاديب الفيلسوف الخالد ، ومن الادب الغربي ثانياً ، مشيرين الى اشهر المتشائمـين ، الذين قضوا ، ولكن افكارهم لا تفتىء تجد ارضاً خصبة ومجالا رحباً في العقول الحائرة المكدودة وممن لا يزالون احيـاء ، يكملون رسالتهم التاعسة في تسمير الزمن ، وعرقلة التطور ، او شد الناس الى بشاعة القديم وظلمة الامس .

وبعد ذلك سأحاول رسم اتجاه للاديب سيساعد على تحقيق ما نهدف اليه من اهداف سامية ومثل عليا .

بيئة ابي العلاء :

ان دراسة الادب وتفهم حقيقته ، يستلزمان استقصاء العوامل المـادية

والاحوال الاجتماعية والفكرية التي أثرت في تكوين الاديب وتوجيـــه انتاجه الفكري .

وقد بات يقيناً ان ليس ثمة حدث الا وهو محصلة لاحداث سابقة او رافقة، لان العالم ليس مجرد اشتات من الظواهر المتفرقة المبعثرة ، بل هو كل متصلة اجزاؤه ، مترابطة احداثه ، متفاعلة عناصره. وكذلك مضى القول بان التاريخ هو من صنع الافراد، أو ان للصدفة اثراً في جريان الامور ، وحصول الحوادث واظن انه يصح القول بان الفرد مهما بلغ من النبوغ وحـدة الذهن ، ويقظة البصيرة ، لا يستطيع ان ينفلت من نطاق زمانه ، او يتعدى حدود بيئته ، وانما هو يستمد منها العناصر الاساسية لتفكيره ، والمادة الاولية لأدبه ، إن كان اديباً ، وتتجلى عبقرية الفرد سواء أكان قائـداً اجتماعياً او زعيماً سياسياً او اديباً ، او شاعراً .. في فهمه روح عصره ، وتصويره احوال مجتمعه ، وصوغه تلك المؤثرات صوغاً يتخطى حد الانفعال الى الفعل ، وتعبيره عن آمال الطليعة من ابناء شعبه ، إن بالقول او بالفعل، في النهوض بحالهم والرقي بوضعهم وتنظيم علائقهم على اسس متينة عادلة ، والسير بهم نحو عيش اسمى ومدنية ارفع.

وفلسفة ابي العلاء ، ولنقل ادبه الفلسفي ، ثمرة من ثمرات عصره .. ولعل من شاء ان يرد الاشياء الى مصدرها ، والامور إلى اصلها ملزم بالاطلاع على البيئة التي نشأ فيها المعري وعاش ، وتفحص النظم السائدة في عصره والاحداث التى اضطرب بها زمانه .

وقد قال الدكتور طه حسين في كتابه ، تجديد ذكرى ابي العلاء » :

« انما الحادثة التاريخية والقصيدة الشعرية ، والخطبة يجيدها الخطيب الرسالة ينمقهـا الكاتب الاديب ، كل اولئك نسيج من العلل الاجتماعيـة والكونية ، يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء » .

فلسنا اذن من زمرة القائلين بان « عبقرية المعري بطبيعتها عبقرية حزينة » ولا الزاعمين بان اهم العوامل المكونة لتطير المعري كامنة في نفسه ، ضاربة في صميم اطباعه ومردها الى احساسه الفردي ومشاعره الشديدة اليقظة ، ولا من الواهمين بان : « ابا العلاء بمزاجه وطبعه من الارواح المستوحشة من زهرة الدنيا ، الناقمة على الوجود ، المؤثرة لظلمة العدم وصمت الفناء » . . .

وقد يكون اوهى الآراء رأي من يرد تشاؤم المعري الى علة فقدانه البصر ، لأن العمى ، وحده ، ليس مدعاة لليأس ، وليس جميع المصابين بهذ الداء ساخطين على الحياة ، راغبين عن الدنيا ، ومؤثرين الموت .

وانما نرى ان ادب ابي العلاء الحامل بين اطوائه التشاؤم والحيرة والنقمة والحزن ، يحسن تعليله بملاحظة نقطتين ، اولاهما : حال عصره الزاخر بالثورات والمجاعات . والطافح بالحروب والكوارث ، وحال المجتمع الذي دب فيه الفساد والتفسخ ، وانتشر فيه الظلم والاستعباد ، وتلاشت الحرية وفقدت المساواة واندثر العدل وانشطر الناس الى فريقين : فريق استبد بالسلطة واستأثر بالمال وامتلك الارض والرقيق والحيوان ، وفريق آخر تردى في وهاد البؤس والفقر والعبودية ـ والاخرى : التفسير المغلوط للواقع ، ونقل المشاكل والحوادث من مجاليها الاساسيين : الاقتصادي والاجتماعي ، الى المجال الديني اوالاخلاقي وبكلمة اخرى من عالم الواقع والحس الى عالم الخيال والتصوير . . .

ولقد عاش ابو العلاء في عهد يسيطر فيه نظام الاقطاع المتولد عن طبيعة الانتاج الزراعي . وهذا النظام يتميز بتملك فئة قليلة للارض ، وحرمان الغفير من الناس من حق الملك . وتبعا للارض يحوز المالكون

ادوات الانتاج والايدي العاملة من النساء والرقيق ، ويتحكمون في قوة الجموع وقدرتهم ويدفعونهم في وجوه السعي والنشاط التي تؤدي الى انماء ثروة هؤلاء المالكين ودعم نفوذهم وبسط سيطرتهم !

واذا سقنا الحديث عن مثل هذه الحال التي انعقدت لها السيطرة في القرن الرابع الهجري في بلاد العرب والاسلام ، فليس من العسير علينا فهمها الآن ، ذلك ان هذا الشكل من الانتاج مازال بقاياه ماثلة في بعض اقطارنا العربية التي مازالت آخذة بالزراعة واساليبها البدائية القديمة ، وتنسحب آثاره ، حينما يكون في شدته وانتشاره ، الى طرق الحكم ونظم الاجتماع واتجاه العقلية .

وتزداد هذه الاوضاع سوءا اذا عملت الحروب على اشاعة الفوضى والدمار ، فعندها تتولد المجاعات وتنتشر الاوبئة وتتوالى الخطوب مما يدمر صروح اليقين في القلوب ، ويجتث جذور الامل والتفاؤل من النفوس ؛ ويبعث فيها الشك والخور والتشاؤم .

اما الاداب والفنون في هذه الظروف ، فهي في افضل الاحوال ، وسيلة لاغاية ، بل هي صنوف من السلع تعرض وتسعر يصطنعها صاحبها اداة لكسب رزقه ، والتزلف الى ارباب السلطة وذوي النفوذ ، ليحظى بعطفهم الكريم ، وينعم باعطياتهم السخية ...

ولنقل ان الآداب والفنون تصبح من جملة الاطعمة والاشربة اللذيذة التي تحفل بها موائد الامراء واشباه الامراء ... وفي عداد آلات الترف والبذخ التي تزدحم بها قصور أرباب السيف واصحاب المجد !.

وقد كانت الحياة السياسية في عصر ابي العلاء مضطربة اشد الاضطراب فالحروب متصلة لاتخمد نارها ، والفتن متصلة لاتنقطع اسبابها ، ورجال

الحكم والسلطة منصرفون الى المكائد والدسائس يحركهم الجشع والحرص على السلطان ؛ فيسيرون الرجال جيوشا للقتال ، ويروعون النساء والاطفال ، ويريقون الدماء ارضاءً لروح المغامرة وهوس المال والسيطرة .

اما الحال الاقتصادية في القرن الرابع ، فان التاريخ اذا اتخذناه شاهداً ودليلا ، انبأنا بحوادث غريبة وقصص عجيبة عن مجاعات بغداد والقاهرة حيث اضطر الناس الى أكل الكلاب والميتات ، او اتخاذ بعضهم بعضا طعاما . او وضع الشباك والاشراك في الدورب والحارات يتصيدون بها الاطفال والضعفاء ليتخذونهم شواء . .

وفي حكاية اخرى ان المستنصر خليفة مصر قد طلب من قيصر ان يمير مصر ، بعد ان كانت مصر هي التي تمير القسطنطينية ورومية في العصر القديم .

ويصف ابو العلاء مقر بلدته ، القريبة من مدينة حلب . ويذكر فقرها وجفافها ، وسوء حال أهلها فيقول : « . . . وظاهر ترابها في الصيف يبس ، ليس لها ماء جار ، ولا تغرس فيها غرائب الاشجار . واذا ابرز لاهلها ذبح يؤمل به لديهم الربح ، تحسبه صبغ بخطر ، فكأنما يرمق به هلال الفطر . وقد يجيئها وقت يكون فيه جدي الماعز كجدي الفرقد ، ومثل حمل الكواكب حمل النقد . ويبكر فقيرها على الهداية قبل ابي الفرضين ابن داية حتى يقف بباب الرسل فكأنما وقف برضوان يستوهبه الجنان ، فان سبقه ضياء الفجر فانه يرجع خائباً ، ولا يجد سهمه صائباً ، اما النابت فاذا انبذ عندغيرنا بالصبر حسب هنا سبائك التبر . . . »

ولا غرابة ، بعد ذلك ، ان يكون لهذه الحال البالغة السوء نتائج

جمة ، منها ذلك التفاوت الطبقي الفاضح الذي شطر الناس الى شطرين متباينين متناكرين : الاغنيـاء المثرين ، والفقراء المعدمين . والانقسام الطبقي حادثة اجتماعية تنشأ بنشوء نظام الاستثمار والاستغلال وتزول بزوالها وهي تزداد حدة اثر الحروب المدمرة والفوضى المستحكمة والازمـة الخانقة . ومن مظاهرها احتكار الرزق وانتشار البؤس وعموم الجهل وضياع العدل وكافة ما يميز الانسانية من قيم الحق والخير .

واما الوضع السياسي فقد كان منحطاً فاسداً ، عرضة للتقلبات الدامية والفتن المتناليـة التي قوضت صرح الامن ، ودمرت العمران وأتلفت النفوس واشاعت الذعر والخوف في قلوب الناس ... فقد شهد ابو العلاء في المعرة ، سيطرة الحمدانيين على حلب ، ولكن هذه السيطرة سرعان ما عصفت بها الاحداث فزعزعتها وآلت بها الى الاندثار . . . فالحمدانيون يحاربون الروم مراراً ثم يضطرون لمنازلة الفاطميين في مصر مستعينين باعدائهم الروم ، ذلك ان الفاطميين ، في مصر ، طمعوا في الاستيلاء على بلاد الشام الشمالية ، وسير الخليفة المعتز بالله الجيوش لاحتلالها ، عند ذلك استنجد ابو الفضائل حفيد سيف الدولة باعدائـه الروم ، ولكن المصريين احرزوا الظفر وصالحوا حلب . ثم اعاد الفاطميون هجومهم عليها وحاصروها ، فأعاد ابو الفضائل استنجاده بالروم ، فلبوه وردوا المصريين الذين نهبوا الشام ، واستبوا وهدموا وحرقوا ماشاؤوا...

ثم يغتصب الحكم لؤلؤ احد عبيد بني حمدان ، فلا يقف عند حد في ظلمه وتعسفه . . . وقد كان هذا الامر من دواعي نزوح ابي العلاء الى بغداد عام ٣٩٨ هـ . ثم تصير حلب الى الفاطميين ، فيولون عليها الولاة ولكن صالح بن مرداس يغتصبها منهم ويقيم فيها سلطانه وحكمه وقد كان عهد بني مرداس شديد الاضطراب ، فلم تسكن المنـازعات

بينهم وبين بني عبيد ، بل بقيت منطقة المعري مسرحا للقتال الى امد بعيد ...

ولنسمع الى ابي العلاء ، نفسه ، يصف لنا احوال عصره المضطربة :

أرى حلباً حازها صالح ... وجال سنان على جلقا
وحسان في سلفي طيء ... يصرف من عزه ابلقا
فلما رأت خيلهم بالقتار ... قتاماً على جيشهم علقا
روت جامع الرملة المستضام ... فأصبح بالدم قد خلقا
وطل قتيل فلم يدكر ... وغل أسير فما اطلقا
وكم تركت آهلا وحده ... وكم غادرت مثريا مملقا
يسائل الحي عن ماله ... وما القول في طائر حلقا

وفي ذلك العصر ، كان الحكام مستبدين ، مسرفين في الظلم والعدوان مستهينين بحق الناس ، وحياتهم ومالهم ، وقد بلغ الظلم ببعض هؤلاء الامراء ان كان يحط السروج عن الدواب ويجعلها على ظهور الناس يقادرون بالارسان كما تقاد البهائم !

ويصف المسعودي تلك الفترة من الاضطراب السياسي والانحطاط الخلقي لدى ولاة الامر ، وذوي السلطة فيقول : « ... ضعف الاسلام في هذا الوقت وذهابه ، وظهور الروم على المسلمين ، وفساد الحج وعدم الجهاد وانقطاع السبيل وفساد الطريق ، وانفراد كل رئيس وتغلبه على الصقع الذي هو فيه ، كفعل ملوك الطوائف بعد الاسكندر ... ولم يزل الاسلام مستظهرا الى هذا الوقت ، فتداعت دعائمه ووهى اسسه وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة ... والله المستعان على ما نحن فيه . »

اما احوال المجتمع ، في ذلك العصر ، فكانت تهب الفوضى وفريسة

الفساد والانحطاط . ومن المميزات التي كانت تدمغ الكيان الاجتماعي آنذاك : تفكك الامة الى عناصر وشيع مختلفة ، وانقسامها الى فرق وجماعات متنوعة ، وضعف الاصرة بين ابناء البلاد ، وفقدان روح الاخاء والتضامن بينهم ، وسيطرة الاثرة الخالصة والجري وراء النفع الخاص في سبل سوية او غير سوية ، وانتشار الرغبة في المغامرة المنبعثة عن تشوف الى ابدال الواقع الزري بصورة فردية ملتوية .

اما الاسرة فكانت ضعيفة ، هزيلة الرابطة لا جامع متين يجمع اعضاءها لتفشي التسري والطلاق والتعدد تفشياً لا يستند دوما الى دواع واسباب ، مما ادى الى تضعضع الاسرة ، وحلول النفرة والجفاء بين افرادها .

وماذا نتوقع بعد ، الا ان يعتور الحياة الخلقية ، الانغماس في الشهوة والطمع ، والاندفاع وراء المال والشهرة ، والحرص على النفوذ والسلطة واتخاذ النفاق والمكر وسيلة لنيل المآرب وتحقيق الاغراض .

اما الدين فلم يعدله لدى اكثر الناس ، سلطان على الوجدان ، واثر في النفوس ، بل اضحى وسيلة يصطنعها هؤلاء الادعياء المحترفون لابتزاز الاموال والتحكم بالرقاب .

واذا جاز القول بان الاخلاق قد اعتراها الفساد والانحلال في عصر ابي العلاء فشاع الطمع والكذب والرياء ؛ وان الدين لم يعد صافياً ، متألقاً بالخير والحرية في نفوس بعض الناس ، فلم يتخذه هؤلاء الا ذريعة لجلب منفعة او للتغرير بساذج مغفل — وآية ضعف الروح الدينية آنذاك انتشار الفرق المتعددة ، وتنافسها الشديد كالباطنية والصوفية . . . — اقول اذا جاز ذلك ، استناداً الى روايات التاريخ

عامة ، وشعر المعري خاصة ، فلا يجوز اعتبار هـذه الظواهر الدينية والخلقية مستقلة في نشوئها ، منفردة في كيانها عن الاحداث المادية . وليس اقل خطأ النظر الى تصورات الذهن واشكال السلوك الانساني على انها العلة في انتشار الفاقة والبؤس ، وسيطرة التأخر والجهل ، اذ من الثابت ، رغم التفاعل والتأثير المتبادل الذي يتم بين الوقائع المادية والحوادث الذهنية ، ان تلك التصورات والتصرفات السلوكية ، كانت نتيجة وأثراً لواقع اقتصادي واجتماعي مستند الى طرق عقيمة في الانتاج والتوزيع ، والى نظم جائرة قوامها الاستثمار والتحكم ، في عـلاقات الناس بعضهم ببعض .

هـذه هي صورة موجزة يسيرة ، عن عصر شاعر خالد ومفكر كبير ، لم يدع شيئاً الا وعرض له ، وأعمل فيه عقله الجبار منقباً ناقداً ، ولكنه كان وافر الهدم ، قليل البناء ، جم اليأس ، قصير الرجاء ، وهو ، في جميع حالاته ، متبرم ناقم ، متشكك حائر . ولعل عظمته تكمن في نقمته الصاخبة على اوضاع كثر سوءها وندر خيرها ، وحيرته في تلمس سبيل الاصلاح في عصر ساده القلق وعمت فيه الفوضى في شتى نواحيه .

ولو شئنا لرأينا هذه الصورة مرتسمة في شعره ، لاتنقصها دقة ولا يفوتها وضوح . فلنسمح اليه يقول ، وقد ساءه انقسام الناس الى فئتين لاتعاطف بينهما ولا ودّ :

ويابلاداً مشى عليهـــا أولو افتقـار وأغنياء
اذا قضى الله بالمخازي فـكل من فيك أشقياء

وتساءل ، وليته أمعن في التساؤل ، اذن لزايله التشاؤم ، ونشط للكفاح والسعي لتحقيق العدل واقامة الحق وتحرير الجماهير من الناس :

كيف لايشرك المضيقين في النعـــمة قوم عليهم النعماء

ولكن سرعان مايتراءى له ان امنيته لايعقل ان تستحيل واقعاً ، ويصيبه اليأس فينفر من الكفاح والسعي وينقم على الاحوال السائدة ويؤثر اعتزال الناس :

فانفرد ماستطت فالقائل الصا دق يضحي ثقيلا على الجلساء

وكان للفتن والثورات والدسائس التي يحبكها ويديرهـــا اصحاب المطامع الذين يجرون وراء الغنم والشهرة أثر قوي في ضعضعة احوال البلاد الاسلامية .

وقد كان من ظلم الحكام وجور أولي الامور ، ومن جهل العامة المطبق ، والفاقة التي تعصف بالجمهور عون لهؤلاء الطامعين . وهاك ابا العلاء يخطىء تلك الفئة من الناس ، الذين لم يجدوا خلاصاً من البؤس والعبوديـة الا في انتظار امام ينقذهم . ولكن ابا العلاء يثور بهم ويعنفهم ولا يجد سبيلا الى الخلاص الا سبيل العقل الرشيد :

يرتجي الناس ان يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لاامام سوى العقـ ـل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ماأطعته جلب الرحمة ـ عند المسير والارساء
انما هذه المذاهب اسباب ـ لجذب الدنيا الى الرؤساء
غرض القوم متعة لايرقـــون لدمع الشماء والخنساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبصـــرة والقرمطي بالاحساء

ولكن مااستغربه ان يحشر ابو العلاء ثورتي الزنج والقرامطة بين مذاهب دعامتها الانانية وحب الرئاسة ، وهما فيما اعلم ، نقلا عن أوثق مصادر التاريخ جذوة ساطعة في الذود عن الحريـــة وحق الشعب ، وانتفاضة رائعة ضد الظلم والاستبداد .

وان ابا العلاء ليرى ان شر الناس هم الامراء ، اذا ماجاوزوا الحد ، واتبعوا الضلال ، ومن جماعة الامراء ، نصفهم على الاقـل ، طغاة ، عبيـــد للمطامع ، همهم اغتصاب اموال الناس والتعدي على حرياتهم ، تشجعهم على ذلك بطانة السوء التي لاتعرف الرحمة ، ولا تستشعر الرأفة والشفقة :

أرى امراء الناس يمسون شرهم اذا خطفوا خطف البزاة اللوامع
وفي كل عصر حاكم فموفق وطاغ يحابي في أخسّ المطامع
يجور فينفي الملك عن مستحقه فتسكب اسراب العيون الدوامع
ومن حوله قوم كأن وجوههم صفا لم يلين بالغيوث الهوامع

وتعمل تلك الحال السياسية الفاسدة على تثبيت دعائم الشك في نفسه ، ولكنه مع ذلك يندد بالظلم والجور ، ويحمل على التحكم والاستغلال:

يسوسون الامور بغير عقـل فينفذ أمرهم ويقـال ساسه
فأف من الحيـــاة وأف مني ومن زمن رياسته خســاسه

ويقول في موضع آخر :

ومن شر البرية رب ملـــك يريد رعية ان يسجدوا لَهْ

وكان ابو العلاء شديد النقمة على اهل زمانه ، شعراؤهم اشرار واغنياؤهم بخلاء يحبسون اكفهم عن اسداء العون للبائس ، فهو يقول فيهم منددا ، مستنكراً :

... أمماً شعرت بأنها لاتقتني خيراً ، وان شرارها شعراؤها
أثرت احاديث الكرام بزعمها وأجاد حبس اكفها اثراؤها

وهو يشمل جميع الناس بالذم ، لايستثني منهم من احد ، فيخاطبهم بقوله :

وجوهكم كلف وافواهكم عدا واكباركم سود واعينكم زرق

ولعله كان قد ندي نفسه ، فندم على غفلته ، فأسرع الى حشر نفسه في زمرة البشر الذين يشتركون جميعا في الخسة والنذالة ، فاسمعه يقول :

خسئت يأمنا الدنيا فأف لنا بني اللئيمة أنذال اخساء

ولم ينجُ من هجائه ونقده اللاذع قاضٍ ولا فقيه ، فضلا عن اهل الكهانة والتنجيم . فالقاضي احكامه جائرة ، والفقيه كلامه تمويه وبطل والمتكهن والمنجم يهدفان كسب الرزق والفوز بالغنيمة دون جهد او نصب :

واي امرىء في الناس الفي قاضياً فلم يمضِ احكاما كحكم سدوم

•

كأن نفوس الناس ، والله شاهد نفوس فراش مالهن حلوم
وقالوا فقيه ، والفقيه ممـوه وحلف جدال والكلام كلوم

•

متكهن ومنجم ومعزم وجميع ذاك تحيل لمعاش

وقد عكس ابو العلاء في شعره خلق ابناء عصره واطباعهم ، وهو شديد النقمة على مايعتور خلقهم من فساد وما يشوب اطباعهم من أثرة وما يتسمون به من غدر وكذب ولؤم :

قد فقد الصدق ومات الهدى واستحسن الغدر وقل الوفاء

وساهم الزيف الذي داخل الحياة الدينية في بث الشك والحيرة في نفسه ، حتى ليثور بكل ماتسلمه من عقائد وقيم ...

وانا لنشهده ، وقد اخذ يصور ببراعة حال ارباب الدين في ذلك العهد:

رويدك قد غررت وانت حر ... بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا ... ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء ... وفي لذاتها رهن الكساء
اذا فعل الفتى ماعنه ينهى ... فمن جهتين لاجهة اساء

فهو ينسب اليهم شتى المفاسد ، ويسلقهم بالسنة حداد ، لانهم في نظره قد اتخذوا الدين لاغراض نفعية ، واطماع ذاتية ، ولذات شخصية ولنسمع اليه ، في مكان آخر ، يحمل عليهم حملة شعواء لامثيل لها :

أقيمي لااعد الحج فرضاً ... على عجز النساء ولا العذارى
ففي بطحاء مكة شر قوم ... وليسوا بالحماة ولا الغيارى
وان رجال شيبة سادنيها ... اذا راحت لكعبتها الجمارا
قيام يدفعون الوتر شفعا ... الى البيت الحرام وهم سكارى

وهكذا نجد ان ابا العلاء لم يرتض الشك والتشاؤم مختاراً ، ولم يسلك هذه الطريق المظلمة راضياً ولكن ماكان يعترض ابناء زمانه من مصاعب ومشكلات ، وما كان ينتابهم من خطوب وآلام قد سود الدنيا في عينيه ، وبغض الناس اليه ، وزهده في الحياة ، ورغبه في العزلة ، وهو الرجل الذكي الفطين ، المرهف الحس ، الدقيق الملاحظة ... يقول الدكتور طه حسين : « ان فلسفة ابي العلاء لم تكن الا نتيجة ماطاف به من احوال عصره . ومن الواضح ان هذه الاحوال لم تزد على ان زهدته في الحياة وحملته على التفكير والدرس ، وان هذا

الدرس وذلك التفكير هما اللذان انتجا له كثيراً من آرائه الخاصة في الفلسفة على اختلاف فنونها » ...

تشاؤم ابي العلاء

عرضنا الى الاسباب التي آلت بأبي العلاء الى التشاؤم ، وقد بلغ به هذا الاحساس الغريب حد الاعتقاد بانه يختلف عن سائر الناس ، فقال عن نفسه : « انه وحشي الغريزة ، أنسي الولادة » ...

والواقع ان ابا العلاء قد أخضع نفسه لقانون صارم لايحيد عنه في مأكله ومسلكه ؛ وقد أخضع شعره لكثير من القيود ، حتى نمي بالغموض الشديد ، إن في اللزوميات او في سقط الزند .

ولعل من ظواهر تشاؤمه التزامه في شعره ما لا يلزم ، وتشدده في محاكاة القدامى من الشعراء والادباء ، وهو دائما ، مؤثر للالفاظ البدوية الجزلة ، مفضل المعاني الفخمة ، حتى أنه لم يصب طرفاً من اليسر والسهولة الا حينما اضطر الى ذلك اضطراراً .

والحيرة هي الطابع الشامل لتفكير ابي العلاء ونقده ، فلا يثبت على فكرة ولا يطمئن الى عقيدة ، بل تتقاذفه احوال عصره ، فيعصف به اليأس حيناً ويعاوده الرجاء حيناً آخر ، ويستسلم للقدر ويجعله الحكم في الرزق والخلق وكافة الوان السلوك ، ثم يرجع الى العقل يحكمه في الامور والاعمال ، وينكر الآلية ، ويقر للانسان بعض الاختيار .

واولى بوادر التشاؤم لديه الاعتقاد بالقدر والاخذ بالجبرية كما فعل متصوفة الهنود . وقد قال ابو العلاء في مقدمة اللزوميات انه لم يؤلف

هذا الكتاب مختاراً وانما الفه بقضاء لايعرف كنهه .

وهو يؤمن بان القدر يبسط سلطانه على الانسان والجماعات قال :

المرء يقدم دنيـاه على خطر بالكره منه ويناها على سخط
يخيط اثما الى اثم فيلبسه كأن مفرقه بالشيب لم يخط

ويذهب الشر الى الانسان ذاته ، ويقيم القدر حكما مطلقا في اتصاف الاخلاق بالفساد :

حوتنا شرور لاصلاح لمثلهـا فان شذعنا صالح فهو نادر
وما فسدت اخلاقنا باختيارنا ولكن بامر سببتـه المقادر

وينتقص ابو العلاء من قيمة العقل ، ويقدم عليه القدر :

العقل زين ولكن فوقه قدر فما له في ابتغاء الرزق مقدور

والاعتقاد بالقدر يناهض مبدأ حرية الاختيار الذي يعتبر اساسا للسلوك الاخلاقي ، اذ لولا الحرية في التصرف ، التي يملكها ، الى حدما كل انسان بصفته كائنا عاقلا يتمتع بالفكر والارادة ، لما كانت ثمة مسؤولية اخلاقية . ولذا يخلص ابو العلاء ، في اتجاهه هذا ، الى تبرير خلقي خطير بانكاره التكليف :

ان كان من فعل الكبائر مجبراً فعقابه ظلـم على مايفعـل
والله اذ خلـق المعادن عالم ان الحـداد البيض منها تجعل

وما دام الانسان آلة عمياء ، فلا يصح توجيه ذم او مدح لاي من الناس :

لاتمدحن ولا تذمن امرءاً فينا فغير مقصر كمقصر

وفي هذا الاعتقاد تحطيم للقيم والاعراف الخلقية ، واضرار بمصلحة

الجماعة لانه من الواضح ان الاخلاق لاتقوم الا على شيء من الاختيار وان المجتمع لاينتظم الا بتقدير الاحسان والاساءة ، ومكافأة المحسن ومعاقبة المسيء . قال علي : « لايكونن المحسن والمسيء عندك على حد سواء ، لان في ذلك تشجيع لاهل الاساءة على الاساءة، وتثبيط لاهل الاحسان عن الاحسان »

واذا كان الاعتقاد بالجبر منشؤه التشاؤم ، فانه يزيد بدوره ، في دعم ذلك التشاؤم وتثبيته ، إذ يعتبر العقل مسخرا لقوى غريبة عنه ، ويصدم كل اعتقاد بالتقدم الانساني ، وينكر التطور التاريخي لاعتباره العالم اشتاتا متفرقة من الحوادث لارابط بينها ولا قانون ينظمها سوى مشيئة القدر العمياء ، فهي لاتتجه الى غاية !

وهذا الاعتقاد المظلم يحمل الانسان على العزلة والانفراد ، كما صنع بزهاد الهند ، ويحبط كل محاولة لتحسين حياة البشر او النهوض بالمجتمع الانساني الى مستوى اسمى .

ومن المعروف ان الافراد والجماعات ، يخضع كل منها لمؤثرات لاتستطيع التخلص منها . ولكن مهمة الفكر ان يطلع على تلك المؤثرات ليوجهها الوجهة الملائمة لابدال الواقع ، والصعود بالحياة الى حال افضل .

وان تحكيم العقل في شؤون الحياة وتطور المجتمعات ، وأخذه بدراسة الحوادث دراسة علمية ، ونسبتها الى اسبابها الحقيقية ، يقود الى المعرفة التي تعبر عن نفسها بالقانون . وان النظر الى الحياة البشرية في ماضيها وحاضرها على ضوء القانون لما يسمح بالتنبوء عن المستقبل . وهذا التنبؤ العلمي يفسح المجال للسير في طريق آمنة بحرية وعزيمة ، ويشق للافراد والجماعات طريق تفاؤل وأمل ونور ...

ولكن ابا العلاء كما ذكرنا ، لايثبت على فكرة ولا يطمئن الى عقيدة ، فبعد ان اعتبر القدر المتصرف في شؤون البشر ، عاد الى ابداء ثقته بالعقل والنصح باتخاذه دليلا ومرشدا :

خذوا في سبيل العقل تهدوا بهديه ولا ترجون غير المهيمن راج
ولا تطفئوا نور المليك فانه ممتـع كل من حجبي بسراج

. . .

فكروا في الامور يكشف لكم بعض الذي تجهلون بالتفكير

والعقل ، بعد ، في نظره ، يذلل المصاعب ، ويهون المشكلات ، وعلى المرء ، ان يجعله المشاور النصوح :

عليك العقل ، وافعل مارآه جميلا فهو مشتار الشوار
ولا تقبل من التوراة حكما فان الحق عنهـا في توار

وينقض كل ماقرره عن القدر وسلطانه ، ويؤيد مبدأ الحرية :

كيف احتيالك والقضاء مـدبر نجي الاذى وتقول انـك مجبر

ولكن ابا العلاء ، يتردد بين هذين الرأيين ، ولا يستطيع ان يستقر على واحد منهما ، فيحاول ان يشق طريقا وسطاً ، يجمع بين الضدين ويؤاخي بين العدوين : القدر والعقل ، فيجعل العقل الحكم الصادق المصيب ، ولكنه مقيد لا مطلق ، تمنعه الاطباع والشهوات من النفاذ الى الحقيقة ، فهو كالشمس يحجبها الغمام :

يتحارب الطبع الذي مزجت به مهج الانام ، وعقلهم ، فيغله
ويظل ينظر ما سناه بنـافع كالشمس يسترها الغمام وظله
حتى اذا حضر الحمام تبينوا ان الذي فعلوه جهـل كله

او هو يعتقد ان الجبر انما يصح في الامور التي ليست في طاقة الانسان :

ما باعتقادي ميلادي ولا هرمي ولا حياتي فهل لي بعد تحيير

ولعل هذا الاضطراب في الرأي ، ناشىء عن تقلبه بين التشاؤم والتفاؤل ، والنقمة اليائسة والثورة الجارفة ، بين انسان عصره المنقاد لطبعه وشهوته ، والانسان المثالي الذي كان أمنيته الغالية ، بين تأثره بالفلسفة اليونانية العقلانية ، والديانات الشرقية القائمة على التسليم .

ويصدع ابو العلاء بالحال البشعة التي كان يتخبط بها الناس آنذاك : عسف السلطان وطمع الحاكم ، وانتشار الفقر والوباء والجهل . . . وكأني به قد أخذته خشية من نسبة الامور الى أصولهـــا ، ورد الظواهر الى مصادرها . . . وليس من اليسير الجهر بالحق في زمن يطغى فيه الآمر ، ويجور المتسلط ، وتعقل فيه الالسن ، وتحبس عن النطق !

وأبو العلاء مفكر ثائر ، ولكنه يؤثر التلميح على التصريح وينحو في نقده نحو السلامة واجتناب الملامة ، فتستحيل ثورته بالغاصبين ونقمته على الطغاة الظالمين ، ثورة بالدهر ونقمة على الايام ! :

سألت رجالا عن معد ورهطه وعن سبأ ماكان يسبي ويسبأ

فقالوا هي الايام لم يخلُ صرفها مليكا يفدى او نقيا ينبأ

أرى فلكا مازال بالخلق دائراً له خبر عنا يصان ويخبـــأ

فلا تطلب الدنيا وان كنت ناشئاً فاني عنها بالاخلاء اربأ

وما نوب الايام الا كنائب تبث سرايا او جيوش تعبأ

وهكذا فقد سخط على الايام وعزا الشر الى الفلك ، ودعا الناس

الى الاعراض عنها او الصبر عليها ، فليس ما يصيب أهلها من نوائب ، سوى كتائب مجمعة ومفرقة لا مرد لها .

أما الحياة ، فمن المؤكد اننا مدفوعون اليها راغبين فيها ، ونحن البشر « كائنات حية » أعمق نزعاتنا المحافظة على الحياة والسعي لانمائها . ومن المناهض لطبيعة الاشياء ان تدمر الحياة نفسها ، بل ان منطق الحوادث يقضي بصونها ودفعها نحو الازدهار .

ولكن أبا العلاء يرى ان الخطوب والمظالم ، والضيق والتعسف ، تحيل الحياة البشرية سلسلة من الالم والعذاب ، وبؤرة من الشقاء والمرارة ، حتى ليتوهم المفكر المتشائم ان الالم والشقاء من طبائع الحياة ومستلزماتها ، فينقم عليها ويرميها بالشر والفساد بدلا عن الثورة بكل من يشوه نضارتها ويمسخها هزيلة كئيبة بائمه وجهله وعسفه !

ويرى أبو العلاء أن حب الحياة مستأثر بالانسان مهما ابتلته الدنيا بمحن ومهما رمته بخطوب :

وحب العيش أعبدَ كل حر ... وعلّم ساغباً أكل المرار

•

أبى القلب إلاّ أم دفرٍ كأبي ... سوى أم عمروٍ موجع القلب هائم

وهو يتبسط في بيان هذه الناحية في تعلق الانسان بالحياة :

يسيء امرؤ منا فيبغض دائماً ... ودنياك مازالت تسيء وتومق

أسر هداها الشيخ والكهل والفتى ... بجهل فمن كل النواظر ترمق

وما هي أهل أن يؤمل مثلها ... لود ولكن ابن آدم أحمق

وهو يرى أن الانسان لاينفرد بغريزة الحياة بل يشاركه فيها الحيوان الذي يؤثر الحياة ويجزع من الموت :

أرى حيوان الارض يرهب حتفه ... ويفزعه رعد ويطمعه برق
فيا طائر الأيمن ويا ظبي لاتخف ... شذاي فما بيني وبينكما فرق

وقد خيل لأبي العلاء أن الحياة شر كلها ، فتمنى لو لم يكن في هذا الوجود وأطلق صرخته المدوية :

هذا جناه أبي عليّ — وما جنيت على أحد

ويتوجه الى الحياة فيقول ، وقد أعياه ما لقي من وعورة الطريق وغموض الغاية :

خلقنا لشيء غير بادٍ وانما ... نعيش قليلا ثم يدركنا الهلك

فيتمنى لو أن الانسان لم يخلق على هذه البسيطة ، ولكنه ، وقد خلق ، يكون وافر الحظ إذا تيسر له الخلاص من الحياة :

رغبنا في الحياة لفرط جهل ... وفقد حياتنا حظ رغيبُ

ولا غرابة ، فان الحياة نفسها لاخير فيها في رأي أبي العلاء ، إذ ان المحن ملازمة للبشر حتى كأن الوحش في قفره أسعد من الأنس وأهدأ بالا ، أما ما يدرك الانسان من عز ومجد ، ويصيبه من لذة ونعيم فهو هباء لاشأن له لأنه سرعان مايجرفه الموت . وما قيمة عز فان ولذة عابرة ، وعيش أيل الى اندثار محتوم :

أنس على الارض تدمي هامها إحن ... منها اذا دميت للوحش انساء
فلا تغرنك ثم من جبالهم ... وعزة في زمان الملك قعساء

نالوا قليلا من اللذات وارتحلوا يرغمهم فاذا النعماء بأساء

وبدهي ، بعدئذ ان يؤثر الموت ويرى فيه منجى وملاذاً ، بعد أن نفض يده من الدنيا ، وما فيها من ضروب المفاسد والشرور ، فيرجو انقضاء العمر بل يتمنى لو لم يخلق الناس منذ البدء ، إذن لجنبوا الويل والعذاب :

وما لنفسي خلاص من نوائبها ولا لغيري إلا الكون في العدم
خير لآدم والخلق الذي خرجوا من ظهره أن يكونوا قبل ماخلقوا
وليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء
على الولد يجني والد ولو انهم ولاة على أمصارهم خطباء
وزادك بعداً عن بنيك وزادهم عليك حقوداً انهم نجباء
يرون أباً القاهم في مؤرب من العقد ضلت حله الأرباء

ويبسط ابو العلاء فلسفة الموت بأجلى وضوح ، ويرى في الفناء سبيل الخلاص من الحياة : الشر الاعظم ، بل يرى الموت مدعاة للفخر بله الهناء والمسرة ، وذلك لصعوبة مسلكه يؤدي الى الراحة (النيرفانا):

يدل على فضل الممات وكونه اراحة جسم ان مسلكه صعب
ألم تر أن المجد تلقاك دونه شدائد من أمثالها وجب الرعب
إذا افترقت أجزاؤنا حط ثقلنا ونحمل عبئاً حين يلتئم الشعب

•

قضى الله أن الآدمي معذب الى أن يقول العالمون به قضى
فهنيء ولاة الميت يوم رحيله أصابوا تراثاً واستراح الذي مضى

والطريف ان شاعرنا المتشائم يرى الشقاء لاحقا بالانسان لامنذ ولادته فحسب ، بل منذ انبعاث الروح في النطفة :

وما برح الانسان في البؤس مذجرت به الروح لامذ زال عن رأسه الغرسُ

ولعل الموت عنده اهون مصائب الحياة وأيسرها احتمالاً :

مصائب هذه الدنيا كثير وأيسرها على الفطن الحمام

اما اذ كان لابد من الحياة والبقاء في الدنيا ، فليس افضل من الزهـــد والانفراد عن الناس ، واعتزال المشاكل والهرب من ميدان العمل :

ومن يبلُ بالدنيا وسوء فعالها فليس له الا التعبد والنسك

• • •

ذووالنسك خير الناس في كل موطنٍ وزيهم بين المعاشر خير زي

واذا تقصينا علة هذا الرأي الاسود ، عند ابي العلاء ، ربما وجدنا بعضها في حال توزيع الثروة في زمنه ، وهي مشكلة كل زمان ، فقد كان يخشى ان كثر الناس أن تضيق بهم الارض :

لوهب سكان التراب من الكرى أعيا المحل على المقيم الساكن

لغدوا ، وقد ملأ البسيطة بعضهم ورأيت اكثرهم بغير أماكن

ولكن هذه المشكلة الاقتصادية في صميمها ، تنتقل ، في نظره ، إلى ميدان الاجتماع والاخلاق ، فلنسمع قوله :

إذا كثر الناس شاع الفساد كما فسد القول لما كثرْ

• • •

لو أن كل نفوس الناس رائيـة كراي نفسي تناءت عن خزايـاها

وعطلوا هذه الدنيا فمـا ولدوا ولا اقنوا ، استراحوا من رزايـاها

وهنا يلتقي حكيم المعرة بالراهب البروتستاني مالتوس (١٧٦٦) ، وربما كان الأصح أن مالتوس يلتقي بفيلسوفنا الحائر على بعد الشقة بينهما ، وهي ثمانية قرون وربع القرن .

لقد حسب الاقتصادي الانكليزي ، في عصر انتشار الآلة ، واقتحامها ميدان الانتاج أن نسبة ازدياد الناس تفوق نسبة ازدياد الارزاق فخشي أن يقع الناس فريسة للبؤس والعوز . وقد ساقه الحذر من المجاعة ، والخطأ في التعليل والاستنتاج ، الى علاج ليس على شيء من الرونق والنفع ، ألا وهو تحديد النسل ، والتقليل منه !

فالظاهرة الاقتصادية التي اعترت المجتمع البشري في عصرين متفاوتين ، وهي الفقر الذي أصاب جمهور الناس الكادحين والفقراء ، قد أوحت الى أبي العلاء ، وروبير مالتوس بعلاج عقيم ، وحل وهمي لا يمكن أن يحقق لتأصل الرغبة في النسل عند الانسان ، رغبة تمتد جذورها الى جسده ونفسه... وذلك ما أشاع في نفسيهما السخط والنقمة ، وخضب الدنيا في عيونهما بالسواد القاتم .

وأبو العلاء سيء الظن بالطبيعة الانسانية ، يزدري البشر ويعدد نقائص الانسان وعيوبه كأنها خصائص مقومة له اولاصقة به ، فيذم الناس دون استثناء : فهم كثيرو الشر ، قليلو الخير ، يشبهون الوحوش الضارية او السباع المفترسة ، يتبعون أهواءهم دون تعقل ... وهو لا يخص بذمه فئة ويدع أخرى ، بل يسم بميسمه جميع الناس :

وكلنا قوم سوء لا أخص به ... بعض الانام ولكن اجمع الفرقا

• • •

لو غربل الناس كيما يعدموا سقطاً لما تحصل شيء في الغرابيل

• • •

ومن يفتقد حال الزمان وأهله يذم بهم غرباً من الارض او شرقا
يجد قولهم ميناً وودهم قلى وخيرهم شراً وصنعتهم خرقا

• • •

وجدت الناس في جبل وسهل كأنهم الذئاب أو السباع

وهكذا فالناس سواسية في سوء الطبع . ومن كان هذا رأيه ، فهل عجيب اعتزاله الناس وتمسكه بالانفراد ! :

إن مازت الناس أخلاق يعاش بها فانهم عند سوء الطبع أسواء
او كان كل بني حواء يشبهني فبئس ما ولدت في الناس حواء
بعدي عن الناس برء من سقامهم وقربهم للحجا والدين أدواء

أما الاصلاح فغير ميسور ، والسمو بالخلق ليس ممكناً ، لان الانسان فريسة الاهواء والمطامع والشهوات التي يعجز عقله عن تقويمها او كبح جماحها !

وهو يعلل خسة الانسان وفساده ، حسبما هو زاعم ، بالغريزة ، وينسب الشر الى الطبع ، لا الى ظرف طارىء ونظام جائر ... وطبعي بعد هذا ، أن يفقد كل أمل ورجاء :

والشر في الجد القديم غريزة وفي كل نفس منه عرق ضارب

• • •

وكيف يطلب عدلاً من غريزته تولد الظلم تثميراً وتفريعا

واذا نظر أبو العلاء الى التاريخ ، لا يتعدى نطاق فلسفته السوداء فهو لا يؤمن بالتطور والتقدم ، بل يرى ان التاريخ أحداث متشابهة لا يميزها ارتقاء « التاريخ يعيد نفسه » :

وآخر الدهر يلفى مثل أوله والصدر يأتي على مقداره العجز

وقد دفع الفساد الاخلاقي الذي كان قد نشر لواءه القاتم في عصر ابي العلاء — هذا الأديب الفيلسوف ، الى آراء احلك من جنح الليل . . .

فقد ذم المرأة ، واتهمها بخلقها وذكائها ، ولا غرابة ، فالمرأة بهجة الدنيا ، ترغب الرجل في الحياة وتشده اليها ، وهي بعد ، المنجبة للولد ، الأمينة على النسل . . . ولهذا كله يرى أبو العلاء فيها حية رقطاء :

وإنما انفيد في مساربها كربة السم في تسربها

• • •

الا ان النساء حبال غي بهن يضيع الشرف التليد

• • •

ودفن الغانيات لهن اوفى من الكلل المتيعة والخدور

وهو يخشى من ذهاب المرأة الى الحمام ، ويخاف فوح طيبها في الدروب ويكره اتهامها في المساجد . . . اذ تكون في هذه الاحوال مصيدة للرجال ومفسدة للاخلاق ! :

شر على المرأة من حمامها ارسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب في اكمامها تفوح ريا الطيب من أمامها
زائرة المسجد في لمامها تأتم والخيبة في اتمامها
وحملها المغزل في إتمامها اوفى بما تعقد من زمامها

وهو ضعيف الثقة بالمرأة ، الى حد بعيد ، لاينصح لها بالتعلم ، ويكفيها من ضروب العلم والعمل الغزل والنسيج . اما تلاوة القرآن فلتختصر ما شاءت في قراءته ، اما تلقينها اياه فعلى أيدي نساء عجائز ، اوشيوخ ذهب الدهر بكل ما في الرجال من فيض حياة وانبعاث قوة :

علموهن الغزل والنسج والرد ن وخلوا قراءة وكتابه
فصلاة الفتاة بالجد والاخلا ص تجزي عن يونس وبراءه
تهتك الستر بالجلوس امام الست ر إن غنت القيان وراءه

ويقول في مكان آخر :

فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلمات
ليأخذن التلاوة عن عجوز من اللائي فقرن مهتمات
ولا يدنين من رجل ضرير يلقنهن آياً محكمات
سوى من كان مرتعشاً يداه ولثته من المتثغمات

لقد كان في مجال الامكان الادعاء بأن قول المعري هذا من وحي عصره ، ومقتضى زمانه ، ولكن مابال ادباء التشاؤم يرددون هذه الالحان الشاذة والمعزوفات البغيضة ، في كل عصر ، وفي كل مصر ، يرمون المرأة

بأشنع التهم يسوقونها بيسر وغير تكلف عناء ، ناسين ، او متناسين الأم الحنون ، والزوج الوفية ، والأخت المخلصة ، والمدبرة الحكيمة ، والمواطنة المنتجة ، بله الآسية الشفيقة والمحاربة الباسلة ! ...

وقد أدرك أبو العلاء ، بعقل ناقد بصير أن التعاليم الدينية قد سخرها بعض أهلها لصرف الناس عن الجد والسعي ، وطلب الخير والحرية ، فانذروهم باقتراب البعث ، وحذروهم من الحساب . وهم انما يبغون من وراء ذلك صرفهم الى اهتمام روحي ونضال نفساني تدور رحاه في خيال المهووسين وفي ذلك اتقاء لثورتهم بطمع الطامعين ، وعصيانهم ظلم الظالمين ، وتمردهم على طغيان الطغاة .

ويهجو ابو العلاء الشيوخ الذين يستترون بالدين وتعاليمه ، وهم في غي وضلال يعمهون :

وليس عندهم دين ولا نسك فلا تغرنك أيد تحمل السبحا
وكم شيوخ غدوا بيضاً مفارقهم يسبحون وباتوا في الخنا سبحا

ويجمع اليهم في ذمه وتعنيفه أحبار اليهود :

وليس حبر يدع في صحابته إن رام نفعاً بأقوال تقولها
وانما رام نسواناً تزوجها بما افتراه ، وأموالاً تمولها

ولم يسلم من نقده الجارح حتى رهبان الصوامع :

لعمرك مافي عالم الارض زاهد يقيناً ولا الرهبان أهل الصوامع

ويقول عنهم في مكان آخر :

اذا كشفت عن الرهبان حالهم فكلهم يتوخى الشبر والورقا

ولست أعتقد أن أبا العلاء قد ابتغى ذم رجال الدين جميعاً ، وانما كان همه ذم المنافقين الذين يظهرون صلاحاً ، ويبطنون شراً وزيغاً .

ولكن أبا العلاء لم يقف عند نقد رجال الدين ، بل تخطاهم إلى نقد الشريعة ، والشك في صلاحها ، مؤثراً حكم العقل على حكم النص :

وجاءتنا شرائع كل قومٍ على آثار شيءٍ رتبوه
وغيّر بعضهم أقوال بعضٍ وأبطلت النهى ما أوجبوه

• • •

كم وعظ الواعظون منا وقام في الارض انبياء
وانصرفوا والبلاء باقٍ ولم يزل داؤك العياء

ويشتد الغيظ بأبي العلاء ، ولا يجد لواقعه الفاسد علاجاً حتى في الأديان المتبعة والشرائع المطبقة ، فينشد تحطيم الظلم ، والقضاء على الانحطاط والمكر :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فانما دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وبادت سنة اللؤماء
يقولون أن الدهر قد حان موته ولم يبق في الايام غير ذماء
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاءه فلا تسمعوا من كاذب الزعماء

أما في مجال السياسة ، فأبو العلاء ينتقد الحكام الجائرين ، ويندد بالظلم والتحكم ، ويحمل على الاستبداد والاستغلال حملة شعواء ، فهو يلوم الناس على تقديسهم الملوك ، مع اتصاف هؤلاء بالطمع والاثرة :

ماأجهـــل الأمم الذين عرفتهم ولعل سالفهم أضل وأتـــبر
يدعون في جمعـــاتهم بسفاهة لأميرهم فيكاد يبكي المنـــبر

ويغالب الملوك بالدهر ، ولعل أبا العلاء يعلم أن الدهر بأهله :

وأرى الملوك ذوي المراتب غالبوا أيامهم فانظر بنفسك من غلب

بل يهيج الشعب على الملوك الذين يغتصبون ماله :

فشأن ملوكهم عزف ونزف وأصحاب الامور جبـاة خرج

وأبو العلاء يصل ، في نظرته الى التنظيم الاجتماعي ، الى تقرير المساواة بين الناس أمام الحـق ، فليس لأحد على الآخر فضل لنسب أو جاه :

لا يفخرن الهـاشمي — على امرىء من آل بربر
فالحق يحلف ما علي — عنده الا كقنبر

ورأى فيلسوفنا الخالد ما تجرّه نظم الارث وكنز المال على المجتمع من المصائب ، فتوصل الى رأي طريف في الاشتراكية :

لو كان لي او لغيري قيد أنملة من البسيطة خلت الأمر مشتركا

ويبسط لنا رأيه في الحكم بكل وضوح : الحكام اجراء الامة ، هـذا الرأي السائد في هذا العصر ، والذي لم تتم له الغلبة الا بعـد ثورات دامية وحروب مروعة عصفت بسلطان أبنـاء السماء ، وكلاء الآلهة وأرباب الارض ! :

مل المقـــام فكم أعاشر أمة أمرت بغـير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحهـا وهم اجراؤها

بل يمكن القول أن أبا العلاء قد أدرك غاية ابعد ، اذ قال في

تنبيه الشعب ، ودعم نظرتـه في وجوب السلطة في أيدي الجماعة ، وما الحاكم سوى وكيل يخدم القوم ويرعى شؤونهم :

إذا ماتبينـا الامور تكشفت لنا وأمـــير القوم للقوم خادم

فما أشبه شاعر العرب الاكبر بهؤلاء المفكرين المخلدين الذين يتفهمون عصرهم ، حتى الاعماق ، ليدفعوه في مدارج الرقي والتطور ، ألم يسبق ، وهو من أبناء القرن الرابع الهجري ، أدباء الثورة الفرنسية الكبرى الى كثير من آرائهم وتعاليمهم !

قال الاستاذ زكي المحاسني : « وما أرى أبا العـلاء في هذا النقد الصاخب الذي ازدحم به شعره على الامراء والملوك والرؤساء إلا ضرباً من ضروب الثورة الفكرية التي تتقدم السلاح والدماء » .

ولكن أبا العلاء غلب عليه الحزن والقلق ، فخاطب الخاصة في قومه دون العامة ، وعاش بين أناس أرهقهم الظلم وأوهنهم الجوع وأضعفهم الجهل حتى حسبوا أن الوجود ظلم وجوع وجهل !..

وهكذا نجد ان تشاؤم ابي العلاء ليس مطلقاً ، بل نلقى عنده اضطراباً شديداً فهو مثلاً تارة يقول بالقدر ، وتارة اخرى يظهر ايمانه بالعقل . والى جانب الهدم والنعي ، نلحظ لديه احياناً ، بناءً ودعوة الى الاصلاح ، ولكنه بناء يقتصر على نواحٍ قليلة ، ودعوة خافتة لم تجند الجماهير لدفع ظلم او محو تعاسة ، واشادة دنيا عدل وحق واخاء .

ولكن ابا العلاء سيبقى ابداً عظيماً في تصويره لاحداث زمانه الصاخب ، عظيماً في فكره النقاد الجريء ، عظيماً في عطفه على الانسان وحبـــه السلم

وكرهه الحرب وايثاره المحبة والاخاء ، وحثه الناس على الفضائل والمثل العليا. اما شعره فلوحة متقنة رائعة من صنع العبقرية الفذة ، لجيل كامل وبلد وسيع.

وبالرغم في انكماشه في « السلبية » وعدم تخطيها الى « الايجابية » الفعالة الا قليلاً ، فان صرخاته المدوية لم تنعدم في اطواء الزمن بل مازال يجد فيها كل مفكر حر صدى لثورته على الواقع الزري والفساد الشائع . وسيجد فيها المفكرون الاحرار صدى لثورتهم ، ما دام البشر يعيشون في نظام استثمار واحتكار يتيح للقلة اكثر مما يحتاجون اليه من شرف ونعيم ، ويحرم الكثرة اقل مما يحتاجون اليه من يسير العيش . . ويرمي بالناس ، اوفر الناس نشاطاً وسعياً في وهدة البؤس والتعاسة حيناً ، ويقذف بهم في جحيم الحرب والقتال حيناً آخر .

شوبنهور :

في فترة الانحدار الاقتصادي والاجتماعي ، يتجه الادباء ، في تعبيرهم عن عن السمات العامة لهذا الانحدار ، الى وضع انفسهم خارج الواقع العملي المحسوس ، خارج النشاط الاقتصادي والاجتماعي . وهكذا ينحصر تفكيرهم بأنفسهم ، متخذاً احدى وجهتين : اما ايجابية طوبوية تعتمد الارادة التي لاحد لها ، واما سلبية تتجلى في الفرار من الواقع الى الحلم والانفراد والموت .

وهذا الاتجاه يبدو واضحاً ، اليوم ، في الادب الذي يعكس انحلال الطبقة السائدة في الغرب ، التي تتحكم بوسائل الصناعة والتجارة ، والتي

أصبحت فريسة التناقضات والازمات التي تقوضها وتدمرها . ولم تعد هذه الفئة الاجتماعية تجدعلاجاً تقي به نفسها من الاندثار المحتم ، بعد ان استنفدت جميع قواها الخصبة التي أتاحت لها ، في فترة نهوض الرأسمالية الاوروبية ، ان تغزو العالم وتخضعه لها وتبدل مجراه .

وتذهب هذه الجماعة التي دبّ فيها الخور واعتراها الهزال ، وقد استولى عليها شعور اليأس والاشمئزاز ، وروعتها انتصارات الفئات المنتجة الفتية في المجتمع ، الزاحفة الى امام حتى تسد الافق ! أجل تذهب الى البحث ، فيما وراء الحقيقة الواقعة التي ترسم مصيرها التاعس ، عن عالم تلوذ به ، عن حقيقة خرافية هي رمز الفناء والموت .

فليس من الغريب ، بعد هذا ، ان يلتقي بالمري ، فيلسوفنا الحائر ، وأديبنا المتشائم ، وبعد الف عام تقريباً ، فيلسوف الرحمة والعطف ، وأديب الألم والفناء ، آرثر شوبنهور .

فلعل الظروف المادية التى نشأ فيها مفكر الجرمن ، بالاضافة الى بعض النواحي الفردية الخاصة ، قد أماتت فيه الامل ، وحببت اليه الموت .

والواقع ان الطبقة الالمانية الثرية ، كانت في عهده تعاني الازمات الشديدة ، وتتلقى الضربات القاصمة من جمهور الجماعات العاملة ، التي أخذت تتحسس آلامها ، وتستطلع طريقاً قويماً للتحرر من عبودية رزحت طويلا تحت نيرها الثقيل . وكذلك ، فان البلدان الاوربية ، ومنها المانيا التي تتوسطها ، قد عانت من الحروب النابوليونية ما عانت ، وهزتها تلك الكوارث والخسائر والآلام هزاً عنيفاً ، اقتلع من نفوس الناس الامل ، ومسح عن

ثغورهم بسمة الفرح ، وأسدل على قلوبهم غشاء القنوط والكآبة واليأس .

فلم يكن لشوبنهور ، الذي يملك فكراً نافذاً ، وشعوراً مرهفاً إلا أن يكره الناس ، وينقم على الحياة ، ويحقد على الحرية ، ويعوذ بالموت .. ومن ثم يكتفي بتمجيد العطف وتبجيل الرحمة ...

وقد عاش هذا الاديب من غير زواج ولا نسل ، وقال عن الحياة : « انها جحيم يفوق جحيم دانتي » وأضاف : « واذا لم يكن الشقاء هو غرض الحياة وغايتها ، فاني أستطيع ان اؤكد ان وجودنا في الحياة أنأى الاشياء عن الغرض والقصد . لأنه من السخف ان نظن أن الحزن غير المحدود الذي يتغشى الدنيا ، ويغمر الحياة ، والذي ينشأ من شجون ورزايا متصلة أشد اتصال بجوهر الحياة هو بلا غرض ومجرد حادث عرضي .. » وقد نفض يديه من الدنيا ، وانقطع حبل رجائه من السعادة ، وغمر اليأس نفسه ، فهو يقول في الفاظ منتقاة ، وأخيلة رائعة : « الدنيا لاتسر انساناً ، وكل منا ينفق جهده ، ويقضي حياته في طلب السعادة التي لاينالها ، واذا ظفر بها وجدها وهماً من الأوهام . وانما القاعدة ان الانسان لايصل المرفأ الا بعد أن يتحطم زورقه ويسقط شراعه » .

ويسيء الظن بالانسانية عامة ، وكان عليه ، أن يسيء الظن ببعض الناس الأقربين اليه ، ولكنه شاء ان يشمل جميع الناس بالشتيمة والذم ، وفي ذلك دفاع عن القلة المغتصبة الباغية ، وتثبيط لهمم المظلومين المستغلين : « معاملة الانسان للانسان ، تتميز على الدوام بالقسوة البالغة والغلظة الصماء والافراط في الجفوة والامعان في الاجحاف ومجاوزة الحد في التنطع ، وما عدا ذلك فهو

المستقى » . ويضيف الى هذه القطعة من الهجاء : « وفي قلب كل انسان يرقد حيوان مستوحش شديد الضراوة ينتظر فريسته ليزلزل زلزاله ويثير زوابعه . »

اما العالم فهو شر وسوء لان الارادة ، أس الحياة ، تعني الحاجة ، والحاجة تولد الرغبة ، والرغبات ، اذا لم تطمن وتشبع ، تسبب الألم : « ... ما دام ادراكنا مغموراً بارادتنا ، وما دمنا مدفوعين لارادة هـــذا الشيء اوذاك ، فيستحيل ان نحيا في سعادة كاملة اوفي سلام دائم » .

اما اللذة فهي الوجه السلبي للألم ، هي انعدام الشقاء ، وانقطاع الحزن ، فما اضألها وأندرها ! : « ان كل ما يقنع الناس اوما يسمونه عادة بالسعادة ، سلبي في حقيقته وجوهره ... »

والالم يشمل كافة الموجودات المتدرجة في سلم الحيـاة ، من النبات حتى الانسان . وهو ، إلى ذلك ، يرى أن الالم يزداد بنسبة مطردة مع الوعي والنضج أي يزداد بازدياد ارتقاء الكائن في سلم الوجود ، وتفتحه للشعور واليقظة :

« . . في النبات لايكون قد تم الاحساس بعـد ، ولذا فلا ألم . ثم يعاني أحط أنواع الحيوان مقداراً يسيراً جداً من الألم ... وتظهر قابلية الألم بدرجة عظيمة حينما يكمل تكوين الجهـاز العصبي للحيوانات آكلة العشب ، ثم تزداد باطراد كلما نما العقل .. حتى يصل الألم الى ذروته العليـا في الانسان . ثم يزداد مايحسه الانسان من ألم كلما دقت معرفته واشتـد ذكاؤه ، ولذا كان أشد بني الانسان معاناة للألم هو العبقري الموهوب » .

والحياة ، في نظره ، مجال تنافس وتناحر ، لأن الكائن الحي يناضل بعناد للظفر بالبقاء ، وارادته سلاح له في هذا النضال المستمر .

وهذا الكفاح ليس مسرحه الغاب ، وحده ، بل يظهر في شتى النواحي ،

حتى الانسان ، يسحق أخاه الانسان في عراكه الدائب في سبيل الاحتفاظ بالحياة : « ... إن النملة الاسترالية لتضرب لنا أوضح مثال في هذا الباب ، لأنها تنقسم الى نصفين ، ثم تبدأ المعركة بين الرأس والذنب ، فيعض الرأس بأسنانه الذنب ، كما يلدغ الذنب الرأس لكي يدافع عن نفسه دفاعاً مجيداً ، وقد تستغرق المعركة نصف ساعة حتى يموتا أو يطردهما النمل الآخر ...

فارادة الحياة تفترس بعضها أينما ذهبت ، ويكون غذاؤها في صور مختلفة حتى يجيء في النهاية الجنس البشري الذي يتحكم في سائر الاجناس الاخرى فيحسب الطبيعة مصنعاً لنفعه هو ، ومع هذا فحتى الجنس البشري . . . يبدو فيه هذا النزاع بأجلى وضوح ، هذا النزاع الذي يقع بين الارادة وبين نفسها فنرى « الانسان ذئباً للانسان » .

ويشهد شو بنهور على صحة رأيه ، كثيراً من صور الحياة البشرية القاتمة فمن المشا في الزاخرة بالمرضى والمشوهين ، الى السجون الغاصة بالمجرمين ، وميادين القتال الملطخة بالدماء ، بل الى الاكواخ التاعسة حيث يختبىء الشقاء المرير ، والسراديب حيث يهلك المعذبون جوعاً ! ، وهنا ، يلمح المرء بواعث التشاؤم عند الفيلسوف . فهذه العلل الاجتماعية والاوضاع المادية ، اذا اعتبرت توهماً وخطأً ظواهر أبدية في حياة الناس ، وخواص متمكنة في المجتمع ، ولا سبيل الى تبديلها والخلاص من شرورها ، كانت دون ريب ، سبباً لا نطفاء جذوة الرجاء في القلوب .

ويوضح المفكر المتشائم هذا الباعث على اليأس في مكان آخر ، اذ كتب يقول : « يدخلونك وانت صبي في الخامسة منزل قطن ، او مصنعاً آخر ،

فتظل منذ تلك الساعة تذهب الى مصنعك كل يوم ، فتقضي فيه اول الامر عشر ساعات ، ثم اثنتي عشرة ، ثم كل اربع عشرة ، تؤدي أثناءها عملا آلياً لا يتغير ، وانت مضطر الى هذا لكي تشتري باغلى الاثمان أنفاسك التي ترضي بها إرادة الحياة . . . »

ولكن شوبنهور لا يقف عند حد النقمة ، بل يخطر له ، وقد جبن عن الانتحار ، أن يقضي ولو بصورة خيالية ، على الحياة . فأنكر وجود هذا الكون وتجاهل الواقع العملي المحسوس الذي أرهقه وأخافه ، واعتقد أن الدنيا من صوغ عقولنا وتلفيق أذهاننا ، وليس لها كيان حقيقي إلا في تلك العقول والاذهان ... فالعالم مجرد مظهر من مظاهر الوعي . وقد كتب في بدء مؤلفه « العالم كارادة وفكرة » : « العالم هو فكرتي عنه » . وهكذا يتبع شوبنهور الوجهة التي سار فيها « كانت » قبله ، فزعم وجود تعارض بين المعقول والحقيقي ، وبين الوجود الظاهر والجوهر المفروض سلفاً .

وهكذا يفترض شوبنهور ، وراء هذه الدنيا البادية للعيان ، دنيا حقيقية يدعوها الارادة التي تظهر في شتى الكائنات : في النبات تطلعاً ، وفي الحيوان جهداً وكفاحاً . والارادة ، في رأيه ، قوة تكمن وراء الوعي وتسيره ، وهي عمياء ، لأنها موجودة قبل العقل ، بل هي المولدة له : « أما العقل فقد أنتجته الطبيعة ليخدم ارادة الفرد ، والقصد منه أن يتعرف الاشياء بمقدار ماهي دوافع الارادة ، لا أن يسبر غورها أو يفهم حقيقة وجودها » .

وهكذا يقع شوبنهور في مثالية لا تضارعها إلا مثالية زميله في الحقد على النوع البشري ، الراهب البروتستانتي مالتوس . وينتج عن هذا ، ان كل

محاولة لتنظيم الواقع على نحو عقلي ، لايمكن في زعمه ، الا أن تؤدي الى صورة مصطنعة للحياة مناقضة للحقيقة الجوهرية .

ويزعم مفكر الجرمن ، أن إرادة الحياة ، هي ارادة أهواء وشهوات لاترتوي . عله يريد أهواء « الفونات » المتغطرسين ، وشهوات المترفين سادة المال . ولهذا كله، فان الالم هو عنصر الحياة وجوهرها ، وليس ثمة سبيل لتخفيف حدة ذلك الالم سوى الرحمة والعطف .

إنه دواء ناجع وعلاج يسير : فاذا اشتكت الجوع من الجوع فخير غذاء لها ، العطف عليها وإذا سيمت الظلم فأفضل علاج لها الرحمة بها .. وإذا انتابها مرض، أو عصف بها بؤس فلتتل عليها بعض قصائد الشعر ، وتعرض لها بعض آيات الفن !

اننا نكبر شعور العطف النبيل ، وعاطفة الرحمة السمحة ، فما اروع ما يفيض به القلب الانساني ، وأحلى ما يزين الحياة البشرية . ولكن انى لهذه المشاعر الرقيقة ان تكون علاجاً لادواء المجتمع البائس ، وحلا لمعضلاته المادية والاجتماعية التي يتخبط فيها !

وارادة النسل ، قوة مكينة في الكائنات الحية ، تتغلب على جميع العقبات التي تقف دونها . وهذه الارادة طاغية ، لاتستكين لحكم العقل : «ان الارادة لتبدو في التناسل مستقلة عن المعرفة ، فهي تسير في هذا المجال سيراً أعمى...»

اما العالم ، فهو في نظره ، تجسيد ارادة واحدة خفية . ويصل في هذا الاعتبار، الى رأي رجعي في التاريخ ، بانكاره التطور والتقدم اللذين يطرأن عليه . وعنده ، أن الاحداث لا تقع وفق نظام معقول او خطة مدبرة « فالتاريخ حلم الانسانية الثقيل » .وليس مايحصل في عصرنا سوى صدى

خافت ، وصورة مشوهة ، أو غير مشوهة ، لما حدث في الامس : « ... إن الانسانية هي في كل مكان ، على الرغم مما توجبه الظروف الخاصة من أوجه الخلاف في العادات والاخلاق والازياء ... وقراءتك لهيرودوت تكفي لدراسة التاريخ في كل زمان ومكان . ورمز الطبيعة الحقيقي هو الدائرة لانها تعبر عن التكرار ».

هذا ما يذكرنا بفيلسوفنا العربي ، ابي العلاء ، القائل بجمود التاريخ ، وثبوت الزمن . ويلتقي جميع المفكرين المتشائمين في هذا الاعتقاد ، ولكن الواقع يخطىء ادعاءهم ... لان الكون والمجتمع يحملان في نفسيهما ، بما يحدث من التناقضات المستجدة في قواهما المكونة ، القدرة على التطور والسير الى أمام في مدارج الرقي . ربما ظن شوبنهور انه قد أوقف عجلة التاريخ التي خشي ان تصدم ارباب الهيمنة والسلطان في زمنه .. ولكن عجلة التاريخ تجري ، لا يعيقها عن المسير عائق !

ولشوبنهور لقاء آخر بالمعري ، وهما يكادان يلتقيان دائماً ، في اعتقاده بالجبرية وايمانه بالقدر ، وفي رأيه القاتم في المرأة الأمينة على النسل . يقول متشائم الجرمن : « ان التجربة تعلم الانسان انه ليس حراً وأنه خاضع للضرورة ، وانه لا يتسنى له ان يغير من سلوكه على الرغم من كل ماله من عزم وتأمل ... »

وعندما يتحدث الاديب الساخط عن المرأة ، يتحول شاعراً هجاءً يبتكر الشتائم ، ثم يكيلها للمرأة بغضب وحدّة . ولا غرابة ، فالمرأة مدعاة الرجاء والاستبشار بالحياة ، وهي الدعامة في تأبيد النوع واستمراره ، ولذا فقد نقم

عليها واتهمها بقصر النظر والميل الى التبذير والاسراف ، والنزوع الى المكر والخديعة والرياء .. اما جمالها فوحي الغريزة ، وليس اكثر غباء ممن يطلق على النساء لقب «الجنس اللطيف» .. إنهن طويلات الشعور قصيرات العقول . والمرأة بعد، لا تفهم الفلسفة ، ولا تتقن العلم ، ولا تبرع في الفن !

اما البطل في نظر شوبنهور ، فليس المصلح ولا العالم المبدع ولا الجندي الحر ، بل هو رجل غير هؤلاء ، هو الناسك الذي يقمع اهواءه ويقهر نفسه !

لقد حسب انه استطاع أن يحول معركة حقيقية بين الكثرة المعذبة المستعبدة ، وبين القلة المتحكمة الباغية ، الى معركة نفسية وهمية بينه وبين نفسه وبين المخلوقات جميعاً ، تدور رحاها في خياله الخصب المبدع !

ونشير تبعاً للتشاؤم الصاخب الذي عبر عنه شوبنهور ، الى شاعر آخر ، يمثل النزعة السوداوية في اقصى مراحلها واخطر ظواهرها ، وهو راينه ريلكه .

يعبر ريلكه « شاعر الاحلام والقلق والموت » أبلغ تعبير عن الألم والأسى اللذين يعانيهما الانسان المنفصل عن الواقع ، المنصرف عن العمل والجهد . فهو يفر من الواقع الى نفسه ، الى تصوراته وأوهامه ، ويهرب من وطنه ، المانيا ، ويطوف في ارجاء اوروبا ، ولكنه لا يظفر برجاء ولا سلوى . وعندها يستعين ريلكه بالموت ينقذه من جحيم الحياة : « انما يعرف معنى الحياة حقاً ، ذلك الذي نفذ الى معنى الموت وقيمته ، فليس الموت ماء الحياة الذي يخرج منها كما يخرج النهار من الليل فحسب ، بل هو ازدهارها وتمامها لانه يمكننا من مقاربة وجود أعلى ، من الاتحاد بالله » .

ويفسر مزاج ريلكه نظرته هذه الى الحياة والوجود ، وتفسرها بالدرجة

الاولى ، علل اجتماعية معينة ، ذلك ان هذا الشاعر ينتمي الى فئة فى المجتمع صغيرة ، أخذت تنقرض في أوائل هذا القرن .

ويذكر عنه لوردبرج في مذكراته موضحاً موقفه من المجتمع :« وكان في باريس منعزلاً يكاد يدحره الشقاء ، فوقف يدافع عن نفسه بوعي صادق لطبقته ضد الانهيار الاجتماعي . والواقع انه يلاحظ انه في بؤسه ظل محتفظاً وسط الفقراء ، بهندام معتنى به واظافر نظيفة ، ووشي على اكمام القميص!.. فقد اضطره البؤس الى مخالطة الشعب ، ولكنه لم يشاركه في عمله ، ولذلك فهو لا يفهمه ، ولا يرى غير حالته الأليمـــة ، دون ادراك التغير الاجتماعي والأمل الذي ينطوي عليه . وهكذا فاننا لا نجد في تآليفه صيحة الثورة ، ولكن شفقة غامضة لا تجدي ، بل انها تغيظ احياناً إذ تجعل للفقر قيمة هامة لانه يجرد المرء من متاع الارض فييسر له الاقتراب من بساطة الروح ونقاء القلب».

ونبوّ ريلكه عن البيئة الاجتماعية وابتعاده عن النشاط العملي ، أفقداه النظرة الواقعية الى الحياة ، واوقعاه في مثالية تأملية . فالعالم في نظره ميدان شعور مرهف واحساسات نادرة وتأملات في الماضي والزمن الغابر .

واذا كان ريلكه يرى الانسان فريسة الموت منذ مولده ، او مخلوقاً تأتكله الحياة ، وتبتليه دون ان يستطيع لمصائبها رداً ، فمرد ذلك طابع المجتمع الحاضر الذي يحول بين جماهير العمال وبين تعويض عملهم العادل مما يؤدي الى وقوعهم في البؤس والشقاء ويزيد سيطرة الرأسمال عليهم . ولهذا يضع ريكله مقابل هذا الانسان النشيط الكادح المناضل ، ملاكاً تتجدد فيه الحياة المنبعثة من ذاته ، فيعرف سلاماً ونعيماً لا يعرفها انسان .

هذان نموذجان للفكر والادب المندثرين بما ينطويان عليه من مهاجمة القوتين الكبيرتين في حياة الناس : العمل والعقل . فبدلاً من أن يمجدا في الانسان قوى الحياة والسعي ، فانهما يبهظانه ويمضانه بأحاسيس الالم والموت .

هذا هو الأدب الاسود الذي يلاقي الهزيمة ، يوماً بعد يوم ، بينما ينعقد النصر لأدب الكفاح الذي لايعتبر جوهر الاشياء منفصلاً عن كيانها المحسوس ، ولايدرك الفكرة منفصلة عن الانسان ، والذي يؤمن بقدرة العقل على ادراك الواقع ، والسير به في سلم تطور وثورة نحو الكمال والسمو .

الوجودية :

وقد نشأت ، حديثاً ، في فرانسا ، حركة فكرية واسعة المدى ، كثيرة الانتاج ، حشرت في تأييدها جماعة وافرة العدد ، وأثارت ضجة صاخبة ، وتسربت حماها في أرجاء فرانسا ، وغير فرانسا من أقطار الشرق والغرب ... حتى في بلادنا العربية ، حيث تهوى العقول الافكار الصافية صفاء سمائها ، وتتطلع الاذهان الى الآراء المشرقة إشراق جوها ، فقد وجدت هذه الموجة « الوجودية » التي تظللها غيوم سكاندينافيا ، ويغشيها ضباب جرمانيا الهتلرية وتشوبها أجواء باريس القاتمة في ظل البورجوازية السوداء ... وجدت في نصرتها بعضاً ممن ساورهم القلق واستبدت بهم الحيرة ، واستهوت أفئدتهم ألوان الكآبة والحزن ، وتملكتهم الرغبة الجامحة في كل جديد يخلصهم من الواقع الزري المشحون بالسوء ، كائناً ذلك الجديد ما كان !

والوجودية ، من حيث أنها نظرة شاملة الى الكون ، ليست حديثة العهد بل ترجع أصولها الى فلاسفة اليونان القدماء . ومن الأغريق تسربت

الى العرب والفرس حيث تلبست أشكالاً صوفية متعددة . ومن بعد ، انتقلت الى الغرب ، وبرزت في القرن الماضي ، يحمل لواءها بعض فلاسفة اوروبا الشمالية . والوجودية ، بمعنى عام ، نظرة ذاتية الى الانسان ، تعتبر الجوهر في النشوء ، بعد الوجود ، وتجرد الفرد عن التأثيرات المحيطة .

ويعود عهد الوجودية في مجال الفلسفة الحديثة ، الى زمن الفيلسوف كير كيغارد الذي عارض الفيلسوف الالماني الشهير هيجل في نظرته الى الفرد والجماعة .

لقد ربط هيجل أفكار الانسان وعواطفه بشيء اكثر شمولاً واتساعاً أي بـ « كل » هو الشخصية الانسانية . والفرد في نظره لاحقيقةله إلا إذا اندمج في الجماعة ، وهكذا يصل هيجل الى « فكرة الانسانية » أو « الكل المطلق » .

ولكن كير كيغارد يأبى أن يعتبر الفرد جزءاً من « كل » إذ ان في هذا الاعتبار ، حسب ظنه ، سلب الفرد « وجوده » . ويذهب هذا الفيلسوف الى تحديد الانسان بقوة عاطفية متصلة « بالكائن المطلق » أي الله الخارج عن التحديد . ومن المعلوم أن هيجل يصل في تفكيره الفلسفي الى رأيه في التقيد ، ولكن معارضه كير كيغارد يجد أن هذا الرأي يسلب الكائن العاقل « الامكانية » و « الحرية » !

ويتخطى هيديغر ، عميد احدى الكليات في المانيا الهتلرية ، بالوجودية الى مرحلة ثانية ، فيقرر أننا في هذا العالم لاملجأ لنا ولا معين ، بل نحن نلفي أنفسنا حيارى ، لانعلم لنا مصدراً ولا غاية ، بل كل مانعرفه : اننا وقائع .

ويرى هذا الفيلسوف أننا لانستطيع أن نسير نحو الوجود الحق إلا بواسطة بعض التجارب ، كتجربة العدم المطلق ، ذلك العدم أو اللاوجود الذي يعدم

ذاته ، وينفصل عنه الوجود . ويقول هيديغر ان الانسان يملك القدرة على « التعالي » الذي يمكن أن يتخذ أحد شكلين : التعالي نحو العالم ، وهو اتصال الفرد بالجماعة مهما بلغ من وعيه الفردي وانكماشه الذاتي ، والتعالي نحو المستقبل لتحقيق الامكانيات : لان وجود الفرد هو مايجب أن يوجد عليه . ويرى هيديغر الى الكون من خلال التجربة الفردية التي يعتبرها وصفاً الوجود الانساني عامة وللعالم أيضاً .

وقد قام في فرنسا حديثاً ، جان بول سارتر ، بنشر هذا المذهب الذاتي ، واذاع كتابه الاول « الجدار » قبل الحرب العالمية الثانية ، ثم تتالت كتبه ورواياته « الغثيان » وسواها ، كما اصدر كتاباً عن « الوجودية » للرد على معارضيه . . . اما الحياة في نظره ، كما توحي ابطال قصصه فهي : « اقامة كريهة فرضها على الناس قدر باغٍ » .

وقد كان الحافز على بعث هذه النظرة المنحدرة الى الانحلال ، الملطخة باليأس ، نشوء حركة المقاومة الوطنية في فرنسا ضد الاحتلال النازي . ولئن شهد سارتر هذه الحركة ، فقد كان ، مع ذلك ، وجلاً من تقدم الجماهير ، وتقمتهم على السادة المحتلين واصحابهم المهادنين ، فكتب يدافع عن الباطل والظلم : « اننا لم نكن قط ـ في حركة المقاومة ـ احراراً بقدر ما كنا كذلك تحت الاحتلال الالماني » . ومن الثابت ان سارتر لا يقصد بالحرية ، تحرر الوطن ، وطنه ، من الغزاة ، وتحرر الجموع من السيطرة والاستغلال ، انما يعني بها عزلة قنوعاً إذ يقول « أليست تلك المسؤولية الكلية ، في العزلة الكلية ، هي بالذات حريتنا وقد نزع الحجاب عنها ؟ » . واعتقد انه يصح القول انه يقصد بالحرية المقدرة على ايذاء الناس . والانسان حر ، في نظره ، اي أن

« كل شيء مباح له » حتى الخيانة الوطنية . . . وسارتر ، في مؤلفه عن الوجودية ، يذكر ان شاباً قتل النازيون أخاه ، عند احتلالهم ارض وطنه .. «أراد ان ينتقم من الجلادين الذين سفحوا دم شقيقه وكرامة شعبه» ولكنه كان يهتم بشؤون والدته ويعزيها في مصابها ، فيقصد الى معلمه سارتر يستمد منه النصح والمشورة ، فيجيبه زعيم الوجوديين : انت حر ، اختر ما شئت ، واخترع الحل الذي يلائمك ! . . .

وقد وجد سارتر في المتوسطين فهماً والمترفين ثروة ، والمغرورين ثقافة ، أنصاراً يؤيدون افكاره الحائرة القلقة التي ، وان حاولت هدم الماضي ، والخلاص من التراث القديم ، فانها تخشى التقدم وتخاف الغد الطالع عليها بقوى شابة حيّة تكاد تسد الافق !

وأقبل العالم يصغي بانتباه الى هذه النغمات الناشزة تنطلق من باريس ، العالم المضطرب الذي اوهنت قواه المجازر والازمات ، مما شجع سارتر ومن حوله من الفنانين المغمورين ، ورواد المقاهي والمشارب المتعثرين بالخيبة والفشل ، فوضعت المسرحيات ودبجت المقالات ، وصنفت القصص ... وكلها تدور حول نقطة واحدة ، هي بقعة الدم الذي ينزف من مجتمع جريح ، وهذه النقطة هي : « اطلاق ما في كياننا الفردي من طاقة بيولوجية مخزونة لتسير نحو تطمين الذات تطميناً لايعترف فيه هذا الكيان بأي قيم اخلاقية اومثالية اوعملية موضوعة » .

وهكذا اصبحت الوجودية زياً من تلك الازياء التي يتعشقها المصابون بادراكهم ، الذين فقدوا كل انسجام مع الحياة الواقعية ، أوهي أصبحت افيوناً

عقلياً يغيب في اجوائه السحرية ، هؤلاء البائسين في حياتهم ، ينقذهم من الاخلاق والوعي والعلم و كافة القيود المرهقة !

وقد وجه سارتر جهده لمعارضة المذاهب الفكرية القائلة بتأثر الانسان بالظروف المحيطية ، والداعية الى تبديل الواقع بمعالجة الشرائط المادية والاجتماعية ، والمؤمنة بالعلم والتقدم ومصير افضل للبشرية ؛ فيضع الغرائز مقابل الفكر ، والذات المجردة تجاه الكائن الاجتماعي ، والحرية الوهمية ، قبالة التحرر المستند الى تغيير الاوضاع التي يخضع لها الانسان... يقول سارتر : « إن مثل هذه النظريات القائمة على الاستنتاج الفردي دون الاعتماد على النظرة العلمية الشاملة تعقد الواقع الذي يظهر الانسان ككائن حي مطلق التصرف ، ومطلق الحرية في تكوين حدوده الذاتية المستقلة » . اما القيم التي يؤمن بها الناس فهي ، في زعمه ، ناتجة عن ترسب المخاوف التي تصيب الناس بحسبانهم ان العوامل الخارجية تخطط حدود المجتمع وترسم اشكاله .

اما تعريف الوجودية فمن العسير الوصول اليه ، لان اهم ما يميز اصحاب هذا المذهب ، الاغراق في الغموض . ولكن سارتر يحاول ان يدل على رأيه : « اني انكر ان الجوهر يتقدم الوجود ، واعتقد ان الانسان لا ينبت لفكرة عفوية تدعى « الطبيعة البشرية » بل هو ينبت لا اكثر ولا اقل ، وبطرحه نفسه في العالم يتحدد شيئاً فشيئاً ، وهذا التحديد يبقى دائماً مفتوحاً ، اذ لا يمكن اعطاء وصف نهائي عن الانسان قبل موته ، ولا عن الانسانية قبل زوالها » .

ولا سارتر يعود مرة أخرى ، عند ما طلب اليه ان يقدم تعريفاً واضحاً لما جاء في كتبه ومسرحياته من تعابير تحتمل شتى التأويلات ، فيقول : « ان للوجودية مفاهيم متعددة تختلف بحسب الاشخاص الذين يدرسونها ، وتختلف ايضاً باختلاف الحالات الخاصة التي ندرسها نحن فيها » !

ولكن الواضح ان الوجوديـــة مهما اختلفت اشكالها ، مسيحية كانت كوجودية كير كيغارد وجاسبر ومارسيـــل ام الحادية كوجودية هيديغر وسارتر ، فانها تتخذ لها مستنداً واحداً ، وهو الفرد ، تتصوره منعزلاً عن الجماعة ، متحرراً من تأثيرات البيئة ، مغرقاً في تأمله وانفراده .

والانسان ، في مثالية الوجوديين ، ناقص قليـل الوعي ، خاضع لغرائزه واهوائه ، فهو تجربة فاشلة من صنع الطبيعة . والانسان ، بعد ، موجود وليس في طاقته الانسلاخ عن الوجود ، وعليه ان يخلق نفسه باعمـاله ، ويرى سارتر : « أن قدراً قد لعن الانسان وكبله بالحـديد » ولكن الفرد « المتروك » يسمى لدرك حريته ، لأن الانسان ذاته هو الحرية .

ان سارتر قد نقد الانسان في « جوهره » بدلاً من نقد علة الفساد الاكيدة وهي البناء الاقتصادي والاجتماعي الفاسد ... وهو في ذلك ، قد أصاب الهدف لأنه إذا آثر كل مثقف ، على الأقل ، الدوران في حلقة ميتا فيزيقية مفرغة ، تمتع ذلك المفكر بحريته الكاملة ، والنظام بسلامته التامة !...

والوجودية لا تؤمن بالعلم والتاريخ والحياة المتجهة الى غاية ، بل هي مذهب سواد وفوضى وظلام ؛ قال احد انصارها : « والواقع ان الوجودية تقرر ان

الكون لا يبالي بالانسان ، وهي ايضاً لا تؤمن بأي قانون علمي » . وهي علامة الانحلال وصدى الفوضى ، واشارة اليأس من التغلب على علل المجتمع . فهي تنكر الماضي وتقف وجلي امام المستقبل دون سلاح. والحياة في نظرها، تجدد دائم في كل لحظة ، لا يجري الى غاية معقولة ، يقول سارتر في كتابه «سبل الحرية» « هأنذا موجود ، أتذوق نفسي ، اي احس بالطعم القديم للدم والماء الحديدي، أي احيا ، والحياة هي هذا : « ان اتمتع بنفسي وارتوي منها بدون ظمأ ، اربعة وثلاثون عاماً اتذوق فيها نفسي . وقد كبرت ، واشتغلت ، وانتظرت ، وبلغت ما كنت اريد : مارسيل وباريس والاستقلال ، وقد انتهى كل شيء ، فلا انتظر شيئاً بعد ذلك » .

ولكن مع كون العالم والانسان لا معنى لهما ، والحياة لا قيمة لهـا ، فان الانتحار غير جائز ، وواجب الانسان احتمال مشقة الحياة !

لقد روى الاستاذ ميسر في « مجـــلة الحديث » ان في باريس حانة تدعى « تابو » تقع تحت مستوى الشارع باربعة امتار ، جدرانها متأكلة عارية ، يعبق جوها بروائح التبغ وانواع المخدرات والكحول والعطور ، يتردد إليها «وجوديون» حيث تنتظرهم ليال حمراء ولذات مطلقة العنان !..

ويعترف دعاة الوجودية ان الانصراف الى الملاهي والرقص والمقاهي والارتماء في احضان الكسل والهزيمة هما من ميزات الشبيبة « الوجودية » التي ليس عندها خير ولا شر ، لا جميل ولا قبيح ، ولا حق ولا باطل . ثم يبررون ذلك له بان « جو » المدن في هذا العصر ، يقتضي ذلك !

وفي مثل هذه الاجواء تجد تلك الفئات المختارة من رجال الفكر والفن، متسعاً لبطولاتهم الرائعة ، ومجالاً لذوانهم الخصبة ، ويحيون تعاليم هيديغر ، النازي العقيدة ، وسارتر ، بطل مقاومة سلطة الاحتلال !

لقد حاول سارتر الفرار من المادية العلمية ، وأبى الرجعة الى المثالية وضباب الفكر ، فأوجد الفلسفة الحديثة اوالوجودية ، فكان ، والحال هذه، كالمستجير من الرمضاء بالنار !

ان الوجودية كالمذاهب الفكرية النازية والفاشية وسواها ، انما هي في الرأسمالية التي دب المرض في جميع اعضائهـــا ، والتي تنساق على مهل ، الى الفناء والموت .

ان الفشل لم يجند معسكراً يضارع معسكر الوجوديين ، والانحلال الخلقي والفكري لم يجد اتباعاً اكثر منهم اخلاصاً ، وما إشبه حال هؤلاء بحال الحشاشين الذين ظهروا في عصر الدولة الايوبيـة ، ولكنهم أقل من الحشاشـين عزماً ، وأضعف ارادة ، واكثر انطواءً !

ان خشية ظفر العلم بالجهل ، ويقظة المظلومين ضد طغاة الحكم ، والمال ايضاً، وانتصار الشعب في نضاله لنوال حقه في السيادة ... لم تحـــدث أثراً ادعى الى الهزء والاحتقـار من السارترية وأشياعهـــا في فرانسا وشتى أوكارها في البلدان الاخرى .

رأي في الأدب :

يجتاز العرب في الآونة الحاضرة ، مرحلة شديدة الخطورة من مراحل تحررهم السياسي ، ونهضتهم الشاملة في ميادين الاقتصاد والاجتماع .

وان هذه الفترة التي نحيا فيها اليوم ، لهي الصلة بين ماضينا المديد القريب، المشحون بالعبودية والتأخر والجهل ، وبين غدنا الذي نأمل ان يكون حراً نيراً سعيداً ... فجيلنا خاتمة عهد قد انقضى ولانريد له انبعاثاً ، وفجر عهد آت نرجو ان يكون محققاً لأمانينا في الحرية والرقي والمجد ... حريّ بنا اذن الاّ نطيل الوقوف اونبطئ السير ، بل لزام علينا ان ندفع عن شعبنا الطموح كل ما يعوق وثبته ، ويقف حائلاً دون تطوره السريع وارتقائـــه العاجل ، ونبادر الى اشادة الحياة العربية الجديدة على اسس من اقتصاد سليم يهدف نفع الكثرة ، ولايشوبه استثمار اواحتكار ، وتنظيم اجتماعي صحيح ، للمرأة والطفل فيه مكانة مرموقة وحق غير منقوص ، ونهج ثقافي قائم على التفكير العلمي الذي لاأثر فيه للخرافة والوهم .

وحريّ بنا لبلوغ هذه الغاية أن نشحذ العزيمة ، ونشط للسعي في ميداني العمل والنظر ، مستفيدين من موارد الطبيعة الخيرّة وهي غزيرة عندنا ، ومن شعبنا العظيم ، ومستخدمين كافة الوسائل التي نملكها ، مادية كانت اومعنوية، ومسخرين لاشادة هذه الدنيا الزاهرة الباسمة كافة ابتكارات الفكر البشري : الفلسفة والعلم ، والادب والفن .

ولانكران ان لتبدل وسائل الانتـاج ، والتغير الطارئ على طرق العيش الاثر الرئيسي في العمل على تبديل الواقع ، ودفعه الى الانتقال من طور الى طور، بل لهذه العوامل الدور الحاسم في خلق تصورات جديدة تتفق مع الاوضاع المادية المستجدة. ولكن هذه التصورات، التي هي بمجمل النشاط الفكري، إذا كانت اثراً أو نتيجة

فانها سرعان ما تنقلب سبباً ومؤثراً ، شريطة أن تكون مساوقة للتطور المادي ، معبرة عن الاتجاه الصاعد الذي اتخذته حياة البشر . وجلية الامران الجهد الفكري لا يستطيع ان يكون قوة محركة للجماهير ، وحافزاً على التقدم والرقي ، وباعثاً على الصعود بالبشر الى مستوى اعلى من الانسانية الا إذا كان منبعثاً عن الضرورات المادية والاجتماعية ، ملائماً لتدرج الحياة البشرية ، مفصحاً عن آمال الكثرة من ابناء الارض ... وبكلمة أن يكون ثورياً .

واذا كان لكل وسيلة من وسائل التفكير أثر في البعث والتجديد ، فان للأدب دوراً كبيراً وشأناً ذا بال : ولا غرابة ، فالادب الصق فنون الكلام بالحياة الانسانية ، واقربها من الافهام ، واقدرها على الاقناع ، وأحبها الى الاذواق ، وأشدها شيوعاً بين الناس .

ولا يغربن عن البال ، ان الادب ، كسواه من مبتكرات الانسان ، مخلوق ذو وجهين ، وسلاح ذو حدين . فقد يكون قوة تدفع الى الرقي وتبث الأمل في النفوس ، وتوجه العديد من الناس الى الخير والحق ، وقد يسخر ايضاً اداة لتثبيت الفساد والجور ، وصرف الناس عن الجد الى بهارج مزيفة ، والهائهم عن حقائق الحياة بنشر اليأس والتشاؤم ، واثارة الغرائز والاهواء ، وتمجيد العاطفة والخيال .

فاذا شئنا ان نتعرف الى ذلك النوع من الادب الذي يستطيع ان يؤدي مهام النقد والتوجيه والبناء ، وينهض بهذه الاعباء الثقيلة حق علينا أن نشير ، ولو تلميحاً الى ضرورة اتصال الادب بالمجتمع الذي ينشأ فيه ، واتجاهه في فهم الكون والانسان ، وعلاقته باشكال النشاط الذهني المختلفة .

لقد مضى القول بان النبوغ خلق من عدم ، وابداع بلا قيد، اذمن المناقض لسنّة الطبيعة ، والمخالف لمنطق الحياة وأحداثها ، ان يتعدى الاديب نطاق زمنه ، وينسلخ عن ابنـــاء مجتمعه ، لينطلق ، في عزلة الآله المتمرد ، على سفينة عبقريته المسحورة ، عبر الزمن .

وانما يتجلى نبوغ الاديب في دركه الواقع الذي يكتنفه ، واستطلاع النحو الصاعد لابناء عصره ، والسير في مقدمة فئات الطليعة العاملة على دفع الجماعة في طريق التطور الدائم نحو الكمال .

وهنا نتساءل عما إذا كان في مقدور الاديب ان يتحمل عبء هذه الرسالة دون الاعتماد على وسائل المعرفة الاخرى ، أعني الفلسفة والعلم والفن ، تلك الوسائل التي تهدف الكشف ، عن حقائق هذا الكون .

ونحن لو أمعنا النظر ، لتبينا بجلاء ، انه اذا كان ثمة انفصال بين هـذه الوجوه من التفكير الانساني من حيث الوسيلة والتعبير ، فان بينها اتصالا وثيقاً من حيث المصدر والهدف . وبعد ، فالاديب الحق ، لا يصح ان يكون بهلواناً يجرد أدبه لالهاء الكسالى وإرضاء عشاق المغامرات بألاعيبه السحرية وابتكاراته العجيبة .. بل لا بد له إن أراد أن يهب النـاس ما ينفعهم ويلذهم ويرقى بهم ، أن يعمد الى الفلسفة فتمده بالنهج القويم والمعرفة الصحيحـــة بحقائق الكون والنفس والمثل الاخلاقية ، وان يصل بين أدبه وبين العـــلم الذي ينير له الطريق بما يقدمه اليه من معارف ثابتة يطمئن اليها العقل ، وأن يمدّ يده الى ينبوع الفن يغترف منه جمال الصورة وروعة الشكل ودقة التعبير .

واذا تيسر الادباء ذلك ، يتوارى ، دون رجعـــة ، ذلك الادب الذي يضطرب في الحيرة والشك اضطراب قصبـة في مهب الريح ، والأدب الذي يسودبالكآبة والتشاؤم اسوداد الليل ... ومن طرف آخر ينحسرأدب الهزل والدعابة ، المعبر عن التفاؤل الرخيص الذي لا ينفرع عن شجرة المعرفـــة الصحيحة .

إن هذه الضربين من أدب البكاء وأدب الضحك ، تتصل جذورهمـــا برغبة ملحة،مبعثها العجز عن فهم الحياة وتطويرها ، في الفرار من الواقع الى دنياوات من دموع سخينة او قهقهات جوفاء .اما الادب المنبثق عن فكر واعٍ والمتصل بينابيع المعرفة الثرة والمتحلي بازاهير الفن الجميـلة ، فذلك أدب من نوع جديد ، منظر الى الحياة نظرة واقعية ، ويعتبرها دائمة التحول في شرائط خاصة يسعى لكشفها والسيطرة عليها ...

ذلك هو الأدب الخالد ، تتصل جذوره بالحقيقة ، وتتجه فروعه الى الخير ، وتحمل اثماره النفع ، وتزدهي زهاره بالجمال .

أدب الكفاح

إذا الشعر لم يدفع الى المجد أمة
فليس خليقاً أن نسميه شعرا

إن الادباء قبل أن يكونوا أرباب بلاغة وبيان ، وحملة فن يجمع الى حسن المعنى جمال العبارة ، ويهدف إرضاء الذوق وإثارة الخيال وانارة الذهن ... اقول إن الادباء ، قبل ذلك كله ، هم جزء من أمة ، واعضاء في مجتمع . وبوصفهم هذا ، لا مناص لهم من مشاركة شعبهم في مواجهة ما يعرض له من مشكلات ، وما ينتابه من خطوب ، والشعور بما يشعر به ، في شتى الاحوال ، من فرح واستبشار ، او حزن وابتئاس . انما أكاد أجزم أن الادباء ، من شعبهم ثغره الباسم ، او طرفه الدامع ، وأنهم لسانه المفصح عن خواطر الفكر ، ومكنونات النفس ، ولواعج القلب . . .

بل أكثر من هذا جميعه ، فهم هداته الى المعرفة ، وقادته الى الحرية ، وبناة مجده وسعادته ، يمهدون له طريق الحياة المشرقة بالخير والعدل ، ويذللون عقباتها ويبددون غياهبها ، ليخطو ذلك الشعب ، في أثرهم آمناً مطمئناً الى مدارج الرقي ومغاني المجد .

واذا تصفحنا تاريخنا الحديث ، لا نجد ميدان أدبنا العربي ، في القرن الاخير ، منذ فجر النهضة حتى اليوم ، خلواً من ادباء ابطال ناضلوا ما وسعهم النضال لبعث أمتهم التي فاتها الركب ، وبذلوا من عصارة فكرهم ، ودم افئدتهم ونور عيونهم ، مابذلوا لانقاذ شعبنا العزيز من قيود الرق والعبودية ، والانطلاق به الى عالم يقوم على العدل والمساواة ، وتسوده الحرية والاخاء ، ويكون عزيز العلم ، وافر الرقي ، وارف الحضارة ...

والى جانب هؤلاء ، او بالاحرى وراءهم ، قد انتظمت فئة من الادباء ، سخرت القلم لخدمة ارباب السيف ، ووقفت اللسان على الذود عن ذوي السلطان ، وأقامت من البلاغة درعاً للظلم والاستبداد ، وصاغت من النثر والقصيد أناشيد المذلة والهوان .

وبينما كان شعبنا العربي الابي يستمع الى الاولين ، ويسير على حداء البطولة العذب ، منتقضاً على ظالميه ، محطماً أصنامه ، مكسراً اغلاله ... وكان هو نفسه يبعث بنظرات الهزء والازدراء الى الفئة الاخرى ... كان فريق أخير ممن احترفوا صناعة الادب ، قد ارهبهم العراك الشديد بين قوة زاحفة نامية ، اقصد قوة النور والحق والتطور ، وبين قوة منهزمة ضامرة اعني قوة الظلمة والباطل والرجعية ، فعصف بنفوسهم الخوف ، واعتراهم الذعر ، فولوا الادبار ، يلوذون بصوامع هي اشبه بقواقع تحبس أنفاس من يلجها فيموت خنقاً ، او يبتنون عرزالا في كرم ، حيث يطرب اسماعهم خرير الامواه ، وتغريدات البلابل ، ونقنقات الضفادع... ويكتفون بحياتهم الجوفاء التاعسة ،الخالية من كل لون وطعم ، يلوكون شعر القدامى ، ويعيدون اساطير الاولين او يغوصون في اعماق نفوسهم حتى القعر ! وما اظن انهم يعثرون على شيء . وبعد فمالهم وللاحياء فيما يسعى له الاحياء ويجاهدون في سبيله فلهم دنياهم وللشعب دنياه !

وانقسام رجال الفكر والادب الى « معسكرين » معسكر الحرية والتقدم في طرف ويقف فيه الادباء المناضلون المصلحون ، ومعسكر العبودية والجمود

في طرف آخر وينتظم فيه المنافقون والانهزاميون على السواء ، لا يزال يصخ في يومنا هذا ، بل هو يزداد وضوحاً فتنجلي معالمه ، وتتعين حدوده ، لان منطقة الحياد بين هذين المعسكرين آخذة بالاندثار والتلاشي ، بل اضحت اسطورة لا حقيقة لها .

وقد سارت النهضتان، السياسية والادبية ، جنباً الى جنب ، في هذه الحقبة من تاريخ البلاد العربية ، فكان الأدب ، في قسم وافر منه ، صدى للتطورات والاحداث السياسية ، واننا لنلمح بين تياراته المختلفة ، تياراً ثورياً لا يهادن التأخر ، ولا يمالىء الظلم ، بل كان دوماً صوتاً مدوياً يدعو الى الذود عن حرية العرب في ادارة شؤونهم ، وتنظيم اوضاعهم ، وينادي بضرورة التقدم والترقي في كافة ميادين الحياة العربية ...

وانا لنثبت في هذا الفصل أهم المراحل السياسية التي مرّ بها العرب في نضالهم لنيل حقوقهم المغصوبة ، واستكمال سيادتهم المنقوصة ، ونرى الى أثر ذلك النضال في قرائح الادباء عامة ، والشعراء خاصـــة ، وما فاضت به تلك القرائح من روائع القصيد .

وما زلت باحثاً منقباً في كل ديوان ومؤلف ، حتى عثرت على كتاب قيمّ ، في غاية الجودة ، عن «العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث» لمؤلفه الاستاذ انيس المقدسي ، فأمدني في هذه المهمة العسيرة ، ببعض المادة الشعرية التي احتاج اليها لتكوين هـــذا الفصل عن أدب الكفاح .

عرض تاريخي

دخلت البلاد العربية ، منذ الربع الاول للقرن السادس عشر في حوزة العثمانيين الذين اخذوا الخلافة من العرب ، وبسطوا سلطانهم شرقاً وغرباً ، وأسسوا امبرطورية واسعة الأرجاء ، عظيمة السطوة ، دامت بضعة قرون .

ولم تكن الادارة العثمانية للبلاد العربية واحدة : فسوريا كانت مقسمة الى ولايات مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالعاصمة . اما لبنان فترك في ايدي امرائه يحكمونه . اما العراق واليمن فكانت الادارة فيها مباشرة كسوريا . واما الحجاز فقد تركه العثمانيون بيد شريف مكة يدير شؤونه ، ولكنهم أمدوه بالمال والجند . وكانت مصر ولاية ممتازة ، يتمتع واليها بنفوذ كبير ، وله يد طولى في ادارة امورها . وكان لتونس والجزائر وطرابلس الغرب ولاة يتوارثون الحكم ، وليس بينهم وبين السلطان من صلات سوى اعترافهم بخلافته وتأديتهم له مبلغاً من المال كل سنة ... وقد عانت الولايات المرتبطة ارتباطاً مباشراً بالعاصمة عنتاً شديداً ، واعتداءً بغيضاً ، ذلك انها كانت مرتعاً خصباً لفساد الولاة الذين كانوا ينزلون الرشوة منزلة الكفاءة ، ويحلون الالتماس محل الحق ؛ وكانوا بغية دعم نفوذهم ، يسلكون سبيل التفريق بين الاهالي ، وبذر الفتن بينهم ؛ وطالما صادروا الاموال عدواناً ، وأخذوها اغتصاباً ، وعاقبوا الناس بالشبهة ظلما . اما الجنود الانكشاريون ، فحدث عنهم ولا حرج ، فكثيراً ما كان يعنّ لهم ان ينهبوا المخازن والمنازل ، ويسرقوا ما تقع عليه ايديهم من مال او متاع ، لا يراعون حرمة ، ولا يصونون حقاً .

وهكذا طلع القرن التاسع عشر ، والعرب يغطون في سبات عميق في ظل نيرين ثقيلين: الاستعمار العثماني بانكشاريه وتعسفهم واستباحتهم حقوق الناس ، وولاته وارهاقهم الشعب بالرشوات والضرائب ، واغتصاب ثمرة كدح ذلك الشعب ، وعصارة تعبه ... ونظام الاقطاع ، وما يحمل في ثناياه من تحكم بجموع الفلاحين ، وخنق لحرياتهم ، وابقائهم فريسة للجهل المطبق ، والفقر المدقع ، والبؤس القاتم ...

وعندما كانت البلدان العربية تئن في سجنها وقيودها ، كانت اوروبا عامة ، وبلاد الفرنجة خاصة ، تدك حصون الباستيل ومعاقل الاستبداد ، وتسير قدماً في طريق الحرية ، وتمثل العروش وتهوي بالتيجان ، لتشيد الجمهورية وحكم الشعب ، وتقضي على حكم الفرد لتخط حقوق الانسان !

ولكن في غمرة هذه الاحداث فتحت بعض النوافذ في الامبراطورية العثمانية المغلقة ، فتسربت منها اشعة نفذت الى ما وراء الجدار ، لتنبه الابصار وتنير الطريق ، امام رواد الوطنية ، وطلاب الاستقلال .

فان دخول بونابرت الى مصر غازيا ، قد عقد الصلة بين الشرق والغرب بعد قطيعة طويلة ، ودون قصد من الفاتح اطلعت مصر على العلوم والمخترعات ، وتعرفت الى النظم والافكار الجديدة ، فالتفت الشعب المصري ، الى المدنية الغربية التي كانت وليدة التطور الصناعي الهائل الذي حصل في غرب اوروبا . ولئن كانت حضارة الغرب قد استندت في نشوئها على حضارات الشرق والاغريق والعرب ، فانها قد انطلقت بعد ذلك انطلاقا عاجلاً ، بينما تجمدت مدنية الشرقيين ، ومنهم العرب ، حيث وصلت في سيرها الاول في القرون الوسطى ،

بل قل ، عادت القهقرى في ظل الحكم العثماني . وهكذا فقد مهدت حملة بونابرت السبيل للنهضة العربية الحديثة .

اما لبنان فقد حاز على استقلاله الذاتي ، اثر الحوادث الدامية التي كان مسرحاً لها ، والتي اثارتها أيدٍ اجنبية أثيمة في منتصف القرن الماضي . فقد أثار المستعمرون الفتن ، واشعلوا نار الحقد والضغينة بين الطوائف الدينية وأمدوها بالسلاح ، لتتقاتل وتسفك الدماء ... وعندها كان المستعمر الجاني يجد منفذاً لسلطانه ، وموطئاً لقدمه . ومنذ أقدم الازمان حتى اليوم ، لم تكن الخلافات الدينية والطائفية لتهدف سوى ارضاء طمع الطامعين ، وظلم الظالمين الذين يثيرونها مبتغين نفعاً يصيبونه ، وغنيمة يتهافتون عليها .

ولكن اللبنانيين قد وجدوا في ظل استقلالهم الاداري ، مجالاً للعمل والتفكير ، وتمتع رجال العلم والادب منهم بقسط من الحرية ، وتخلصوا ، ولو الى حد ، من رقابة الحكام المتعسفين .

وكان لاستلام محمد علي باشا زمام الامور في مصر ، أثر كبير في دفع وادي النيل في طريق النهضة الاقتصادية والعلمية والعسكرية . وقد عبرت عن رغبة العرب الملحة في التحرر الوطني ، وتشوفهم الى الوحدة السياسية الصحيحة ، غزوة الجيش المصري ، بقيادة ابراهيم باشا لسوريا لتخليص البلاد العربية من السيطرة العثمانية وكل نفوذ أجنبي آخر . ولكن القوى الرجعية في العالم أجمع ، وخاصة الاستعمار البريطاني ، مستعبد الشعوب الآسيوية والافريقية ، بالاضافة الى الشعب الانكليزي نفسه ، وقفت حائلا دون تحقيق هذه الأمنية التي لا يزال العرب ينشدونها ويسعون جاهدين لتحقيقها .

وعندما أصبحت مصر تتمتع بحكم العلويين ، وسارت في طريق الرقي أضحت ملجأ امينا للمفكرين الاحرار والادباء الاخيار يقصدونها من شتى اقطار العروبة ، وخاصة من سوريا ولبنان ، تخلصا من قبضة السلطان المخيفة وفراراً من وجه الظلم العبوس .

وهكذا تقدمت مصر في مضمار الفكر والادب ، وانطلقت في نهضة وارفة الظلال ، لا تزال مستمرة حتى اليوم .

وفي هذا القرن نشطت الدول الاوروبية للاستعمار ، بعد ان نمت صناعتها، ودخلت قوى البخار ثم الكهرباء في الانتاج ، وتحسنت الآلات ، وكثرت الاختراعات ونشأت المشاريع الضخمة والشركات الكبيرة . فرغبت تلك الدول في بسط سيطرتها الاقتصادية والسياسية على اقطار آسيا وافريقيا بغية جعلها منبعاً غزيراً للمواد الأولية الضرورية لصناعتها، وسوقا تجارية لتصريف منتجاتها دون مزاحمة . . . فنشر الاستعمار ظله الحالك على شعوب الشرق ، ليجمع اربابه الثروات الطائلة من خيرات المستعمرات وجهود ابنائها .

وهكذا استولى الفرنسيون على المغرب العربي، فشرعوا باحتلال الجزائر منذ ١٨٣٠ ، وبسط الانكليز سيادتهم على مصر عام ١٨٨٢، واعتدت ايطاليا على طرابلس الغرب في ١٩١١ ، وارسلت فرانسا حملة الى مراكش عام ١٩١١ أيضاً .

ولا يزال المستعمرون في هذه الاقطار العربية ، يبدون من الظلم والاستثمار الوانا ، ويأخذون بالقسوة والارهاب كل حركة وطنية تنبعث في ذلك الوطن العربي التاعس .

ولكن نضال شعوب المغرب ضد الغاصبين المحتلين ما زال ، رغم الشدة البالغة التي يصطدم بها ، آخذاً في الصعود ، ولن يسكن الا بتحرير هذه البلاد العربية من نير الاستعمار البغيض .

اما في الاقطار التابعة للسلطنة العثمانية ، فان الامر كان اشد وادهى ! فان الشعوب التي كانت خاضعة للحكم العثماني كانت غارقة في العبودية وما تجر من فقر وجهل ، ومحرومة من ابسط الحريات وايسر الحقوق . وكان السلطان مع أعوانه يقمعون كل محاولة للتحرر بالعنف والقسوة .

وقد ادرك بعض المفكرين الاتراك سوء مآل هذا الحكم الجائر الذي يخنق الحرية ويهدم الفكر ويطمع الاجنبي بالبلاد واهلها ، فشكلوا جمعية « تركيا الفتاة » التي تزعمها « مدحت باشا » .

واستطاع هؤلاء الاحرار خلع السلطان عبد العزيز ، ونصبوا مكانه السلطان مراد الخامس . ثم عادوا فخلعوا هذا الخليفة ، وبايعوا اخاه « عبد الحميد » الذي وعدهم بنشر الدستور وتحقيق نهضة واسعة .

ويمنح الدستور ، ولكنه يلغي وشيكاً ، ويبسط الارهاب المخيف جناحيه على ارجاء المملكة ، دانيها وقاصيها ، اكثر من ربع قرن .

وفي هذا العهد الحميدي ، كانت البلاد العربية تشبه سواها من بلاد السلطنة : جور في الحكم ، وإثارة للنزاع الطائفي ، وارهاق بالضرائب ومحاربة للعلم ، ولكل مظهر من مظاهر الرقي والتقدم .

ولكن جماعة « الاتحاد والترقي » تمكنوا من اعلان الثورة عام ١٩٠٨ ،

وانتزعوا الدستور من الطاغية انتزاعا . ولما حاول سيد يلدز أن يعيد الكرة على الدستور المقيد لسلطته والضامن لحق الشعب ، فشل وخلع ! ...

ولما صار الأمر الى الاتحاديين ، شرعوا في تنفيذ خططهم ، التي كان بعض العرب يعتقدون بانها ستنهض باحوال البلاد عامة ، وترضي جميع سكان الامبراطورية ، وتشيع بينهم الأمن والمساواة والحرية .

ولكن الاتحاديين خيبوا آمال العرب ، وغير العرب ، بتصرفاتهم المرتجلة وقصر نظرهم السياسي ، فأجهزوا بذلك على « الرجل المريض » وأودوا بالسلطنة العثمانية الى الدمار والزوال .

لقد كان من أهداف رجال « الاتحاد والترقي » القضاء على جميع العناصر والاجناس واللغات غير التركية ، تنفيذاً لمبدأ عنصري . حاسبين ان ارتكاز الدولة على العنصر والدم ، بدلاً من استنادها الى الدين والعقيدة ينقذها من الاضطراب ، ويدفعها الى التقدم . وشملت خطتهم هذه « العرب ايضاً » ، ولذا فقد اشترطوا للنيابة تأييداً لمقصدهم ، معرفة اللغة التركية .

وعند التئام المجلس النيابي ، تبين ان اختلافا واسعا يقوم بين النواب الاتحاديين ، المتعلقين بسياسة التتريك الغاشمة وبين النواب غير الاتراك الطامحين الى حكم يتوفر فيه العدل بين الافراد ، ويستند الى المساواة بين الاجناس والشعوب . ولذا فقد عمد نواب الجبهة المعارضة لسياسة الاتحاديين الى تأليف « حزب الائتلاف » ، مما زاد شقة الخلاف اتساعا .

وقد برهنت الاحداث التي تتالت عاجلة ، في عهد الاتحاديين القصير ،

ان السياسة العنصرية التي أخذوا بها ، لم تؤدّ الا الى زعزعة أسس الدولة ، وتفكيك عراها ، بعد ان كانت الوحدة الدينية الاسلامية تجمع الاجناس المختلفة في رابطة واحدة .

اما خنق الحريات ، وتجاهل الحقوق ، والتنكيل بالمعارضين فقد استمر ذلك في العهد الجديد ، وزاد عليه الاتحاديون اضطهاد القوميات غير التركية ، تنفيذاً للخطة العرقية !

وبعد ، فقد خسرت الحكومة الاتحادية اقطاراً هامة في البلقان ، وزجت بالبلاد في الحرب العالمية الاولى ، بجانب حليفتها المانيا ، هذه الحرب التي كانت خاتمة الدولة العثمانية التي لعبت دوراً كبيراً في حياة الشرق باجمعه مدة طويلة .

أما العرب ، فقد كانوا ، في بادىء الامر ، يعقدون آمالهم على الاصلاح الدستوري . ولما خاب ظنهم ، وتكشف جماعة الاتحاديين عن نوايا سيئة ومقاصد عنصرية ، لاتمت الى روح الاخاء والحرية بصلة ، نفض العرب أيديهم من الترك ، وأدركوا أن السبيل الوحيد في نضالهم لتحرير وطنهم وبعث دولتهم ، وتحقيق وحدتهم ، وصيانة لغتهم ، وحماية تراثهم ، انما هو اعتمادهم على أنفسهم ، وحشد قواهم ، وتنظيم صفوفهم ، وبث الوعي القومي والسياسي في الجماهير العربية ...

وهكذا بدأ العرب نهضتهم السياسية ، وأخذت أفكار الحرية والاستقلال تشق طريقها الى الاذهان . وقد ظهر مفكرون وادباء أحرار أخذوا ينبهون

الناس الى ضرورة العمل للتخلص من حكم الاستبداد ، مذكرين بامجاد التاريخ العربي القديم ، ومشوقين الى انطلاق جديد في شتى نواحي الحياة العربية .

وقد كان للادب عامة ، وللشعر خاصة ، دور فعال في تنوير العقول ، وبعث الحمية في نفوس العرب ، وانعاش الحركة الوطنية واغنائها بآراء وعواطف جديدة ، ورفعها الى مستوى اعلى من الوعي السياسي .

وتألفت الجمعيات والنوادي التي كانت ، بعض الاحيان ، تتظاهر بالاشتغال بالادب مثل « المنتدى الادبي » الذي أسس في اسطنبول . ومن هذه المؤسسات القومية « الجمعية القحطانية » ، وجمعية « العلم الاخضر » وجمعية « العهد الوطني » ..

وقد كان لمؤتمر زعماء العرب المنعقد في باريز عام ١٩١٣ ، شأن هام في تاريخ الحركة التحريرية ، وان كان لم يجد تحبيذاً من قبل فئة كبيرة من دعاة الوطنية والاصلاح لانعقاده في عاصمة دولة مستعمرة .

وقد قرر مؤتمر باريز المطالبة بالادارة اللامركزية في الولايات العربية وان تعتبر اللغة العربية لغة رسمية في المحاكم والمدارس ...

وربما كان الاتحاديون على استعداد لاصلاح الخطأ ، وتدارك الخلاف ، ابقاءً على الجامعة العثمانية . وقد ساروا في هذا السبيل خطوات ، ولكن الزمن لم يمهلهم ، والحوادث تتابعت سراعاً ، إذ اشتعلت نار الحرب الكبرى ، وخاضت غمارها كافة دول العالم ، تدفعها مطامعها الاستعمارية ، وتنازعها على الاستغلال والسيطرة .

ودخلت الدولة العثمانية المجزرة العالمية ، بجانب حليفتها المانيا ، ولكن

بناءها الضعيف الهرم ، الذي عم فيه الارتباك ، وانعدم التجانس ، ونظامها الاقطاعي المتداعي ، الذي أصبح مدعاة للنقمة والتذمر ، وجهازها العسكري الذي تنقصه كافة عوامل القوة من تنظيم وتدريب وتآلف وعتاد ... كل ذلك لم يمكنها من الصمود أمام القوى الحليفة المنظمة ، الفتية ، المتطورة معنى ومادة ، فسقطت صريعة في ميدان العراك .

أما العرب ، في هذه الحرب العالمية ، فلم يقفوا مكتوفي الايدي ، بل ساهموا فيها بنصيب وافر . فقد قاموا بثورتهم الكبرى ضد العثمانيين دفاعاً عن الحرية ، وطلباً للاستقلال ، واتخذ نضالهم السياسي وكفاحهم الوطني وجهة جديدة .

التيارات الادبية

عرضنا الى الحال السياسية التي سادت الفترة التي سبقت الحرب العالمية ، في الدولة العثمانية عامة ، والاقطار العربية خاصة ، ورأينا ان الاتجاهات كانت متعددة : فالحكم ، في اساسه ، فردي مطلق ، لايحد سلطة الخليفة حد ، وليس للشعب رأي في شؤون الدولة ، أو رقابة على تصرفات الحكومة ... وقد أدى هذا الحكم الاستبدادي الى انتشار الفقر والجهل في البلاد العربية ، والى اضطهاد المفكرين والاحرار ، والبطش بكل منادٍ بالحرية أو داعٍ للاصلاح ... ولكن رغم كل ذلك ، فقد وجد من يجرد الادب للذود عن ارباب السلطة . ولكن النقمة على تلك الحال أخذت بالازدياد ، والدعوة الى النهوض بالامة راجت واتسعت وانشطر اصحابها الى فريقين : احدهما يؤمل الاصلاح بواسطة الدستور الذي ينظم السلطات ويكفل الحريات ، ويمهد سبيل الرقي والتقدم ،

وربما كان من دواعي تأييد هذا الفريق للجامعة العثمانية مع المطالبة بالاصلاح ، هو الخوف من الوقوع في براثن الاستعمار الاوروبي الذي كان قد حطت طلائعه في المغرب العربي . والفريق الآخر ابدى يأسه من تحسن الاحوال فانتقد الاستبداد ، ودعا العرب الى الانفصال عن الدولة العثمانية التي لن تجد الى النهوض سبيلا .

وهكذا فقد ظل شعراء عديدون مخلصين للعرش العثماني ، يحدوهم الى ذلك الاعتياد على طاعة الحكام ، أياً كانوا ، والنزعة الدينية الطاغية . وقد كان هؤلاء على اتصال دائم بمركز الخلافة ، يحرقون شعرهم بخوراً لسادة الحكم ، وتغمرهم النعم السلطانية والاعطيات الشاهانية ، امثال علي بن أبي النصر والنديم والمويلحي واحمد شوقي وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري وسواهم .

وكان احمد فارس الشدياق كثير التمدح بالدولة العلية ، وافر الاطناب بسلاطينها ورجالها ، قال في السلطان عبد العزيز :

للدولة العليا علىٰ ومآثر ... يشدو بها يوم الفخار الآثر
سر حيث شئت من البلاد فلا ترى ... الا النعيم وما اشتهاه الناظر

وقد يكون للخوف من الجور ، أثر في نزعة الشعراء هذه ولكن الرغبة في جر المغانم كانت الدافع الحاسم ، وهاك مايقول الشيخ ناصيف اليازجي في احد الخلفاء مشيراً الى حقه الالهي من حكم « الرعية » :

خليفة الله ظل في خليقته ... ظلت به تتقي الدنيا وتستتر
لا ترتضي غيره الدنيا لها ملكاً ... لو كان جبريل يأتيها او الخضر
مقلد فوق أثواب مضاعفة ... من خشية الله سيفاً صاغه القدر

اذا طلبنا من الباري لناوطراً فليس الا بقـاه عند وطر

ولنسمع الى الشيخ الليثي ، يقول في السلطان عبد العزيز :

ملك الملوك الذي من يمن دولته ظل العدالة في الآفاق ممدود

اما شوقي ، شاعر العرب ، بل أمير شعرائهم ، فقد كان اكثر شعراء عصره « عثمانية » . وقد فاق جميع اقرانه في صوغ المدائح العطرة ، يهديها الى ارباب التيجان من بني عثمان ومن شاء ان يتحقق من « هويته » فليراجع قصائده « صدي الحرب » و « تحيـــة الترك » و « ضيف امير المؤمنين » و « الاسطول العثماني » ...

اما دعاة الاصلاح المعتدلون فكانوا يرون الابقاء على وحـــدة الدولة ، لانها تجمع كافة الشرقيين على اختلاف اجناسهم ، وتقف سداً دون تسرب الاستعمار الغربي، ولكن هذه الفئة من الادباء ، قاومت بشدة سياسة الاستبداد وحكم الفرد، وطالبت بالحاح بترقية الاحوال ، ونشر الحرية .

وفي هذه الفئة ، نجد ولي الدين يكن ، وفرح انطون واديب اسحق . اما خليل مطران ، فمع ملاينته احياناً العثمانيين ، فان له من القصائد اللاذعة في نقد حكم الفرد ، وسياسة الاستبداد ، ما يجعله في مقدمة شعراء الحريـــة الخالدين .

ولعل ولي الدين يكن خير ممثل لهذا الاتجاه . فهو صادق الوطنية ، أمين على عثمانيته ، ولكنه يتطلع الى اصلاح يشمل كافـــة مظاهر الحياة في الدولة العثمانيـة .

ولما اشتهر هذا الشاعر بنزعته الاصلاحية ، نفاه السلطان عبد الحميـد الى

ولاية « سيواس » حيث أقام سبع سنوات . فلنسمع اليه يقول في حب وطنه ، وهو في المنفى :

وانفحي ياريح الشمال سموماً ... واقذفي ياسوافر الافق صخرا
انا أرضى بذا لحب بلادي ... وأرى في سبيلها الموت فخرا

ولكنه شديد النقمة على الادارة الحميدية ، يصليها بنار شعره ، ويستنهض همم الناس لدك معاقل الظلم ، قال :

... حتى انتهت لأمير في تسلطه ... يخشى مظالمه عاد وشداد
ياويلنا انما نبكي لنا وطناً ... يبكيه في الترب آباء وأجداد

ويقول في قصيدة أخرى :

يبكي بنوك ويضحك الزمن ... ماذا أصابك أيها الوطن
ماأوشكت ان تنتهي محن ... إلا وجاءت بعدها محن
أما الرسوم فانها درست ... اما الرجال فانهم دفنوا
العصر راجعت سوق باطله ... فالحق فيه ماله ثمن
ياقوم هبوا من مضاجعكم ... طال المدى ، حتام ذا الوسن

وفي أقصى اليسار ، انتظمت فئة من رجال الفكر والادب ، يصوبون الى الاستبداد والارهاب العثماني سهام النقد الجارح ، وبلغ اليأس بهم من الاصلاح مبلغاً عظيما ، فلم يروا بداً من انفصام عروة هذه الدولة التي يعوزها التجانس بين شعوبها المختلفة والتي شيدت على اساس الحكم المطلق ، هذا الحكم الذي يتنافى مع روح العصر الحديث ، ويتعارض وابسط مبادىء حق الانسان في القول والعمل .

وفي هذه الفريق شاعران كبيران هما الرصافي والزهاوي ، كما يقف في صفهم ادباء آخرون مثل سليم سركيس ، وفتح الله مراش ، ونجيب حداد ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وحسون وسواهم .

وهذه قصيدة للرصافي « ايقاظ الرقود » ينتقد فيها اداة الحكم انتقاد أمراً ويتهجم على رجال الدولة بجرأة وعناد :

حكومة شعبنا جارت وصارت علينا تستبد بما أشارت
فلا أحداً دعته ولا استشارت وكل حكومة ظلمت وجارت

فبشرها بتمزيق الجلود

أنم عن أن توس الملك طرفاً أقم ما تشتهي زمراً وعزفاً
أطل نكر الرعية ، خلّ عرفاً سم البلدان مهما شئت خسفاً

وارسل من تشاء الى اللحود

ونسمعه في قصيدة اخرى « تنبيه النيام » يقول :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم في الموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها

ويرتفع صوت الزهاوي ايضاً بالتنديد بأعمال الحكومة العثمانية ، لا يخيفه بطش ولا يرهبه عنف ، يقول :

وما رابني الا غرارة فتية تؤمل اصلاحاً ولا تتأمل
تؤمل اصلاحاً وترجو سعادة الا باطل ما ترتجي وتؤمل
وما هي الا دولة همجية تسوس بما يقضي هواها وتعمل

فترفع بالاعزاز من كان جاهلاً وتخفض بالاذلال من كان يعقل
لقد عبثت بالشعب أطباع ظالم يحمله من جوره ما يحمل
فيا ويح قوم فوضوا أمر نفسهم الى ملك عن فعله ليس يسأل

ويتابع جميل الزهاوي حملته الشعواء على الظلم والظالمين في مجمل شعره، فيقول في قصيدة له :

نحن في غفلة نيام وعنّا نائبات الزمان غير نيام
نحن في دولة تداركها الله — تبيح المحظور للحكام
وعدها بالاصلاح جم ولكن لا يجوز الاصلاح حد الكلام
نحن قوم قضت إرادة شخص واحد أن نعيش كالانعام

اما حسون فلا يجد معدى، للخلاص من مظالم بني عثمان عن اندثار دولتهم وزوالهم، ولذا كان يرسل من عواصم اوروبا صيحات الحرية الى اخوانه العرب. ولنسمعه يصف فساد الاحوال في بلاد السلطنة :

جلت الشآم وغساناً وعجت على فينيقيا وكليكيا كمعتمر
واذرعات وبلقاء وتدمر في صحراء خالية كالبحر في شجر
اذ لم أجد غير امصار مقلبة ورسم ابنية تبكي على الزمر
وقفت أبكي خراب الملك من مدنٍ في الحصر والوصف يعيي المرء بالحصر

وهو شديد الكراهية للعثمانيين، ولذا نراه يشمت بهم عندما استولى الروس على مقاطعة القرص، يقول :

كم حروب للروس دارت على التـ — ـرك فغادرتها طحينا
علم الروس يخفق فوق القـ — ـرص ولى الاتراك في الغابرينا

هكذا هكذا تدور على البـ ـاغي الدوائر ويهلك المجرمونا
ماعليهم لو عاملونا بحسنى وتساوٍ أو أنهم أنصفونا

ولكن كيف يلجأ هذا الشاعر الحر الى روسيا القيصرية ، ولم تكن أحسن حالاً من الدولة العثمانية ، ويمدح سيدها الذي يفوق السلاطين عدواناً على الشعب ، واغتصاباً لحقوقه ؟!

وهذا شاعر آخر ، يحمل على الدولة العثمانية بقوة وعزم ، وهو الصحفي الشهير سليم سركيس ، يقول :

نرجو صلاح الترك ، قد خابت أمانينا الكواذبْ
هي دولة ظلمت وليس — العدل عن ظلم بذاهب
فانشد معي قولاً ترد — ده المشارق والمغارب
ليس العجيبة فقدها بل عيشها احدى العجائب

وهاك قصيدة لابراهيم اليازجي ، يستنهض بها همم قومه ؛ ويبعث الحمية في نفوسهم ، ويستثيرهم للتخلص من مظالم العثمانين ، وتأسيس دولة عربية تعيد لهم عزاً مضى ومجداً تقضى ، فهو يقول :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى السيل حتى غاصت الركب
فيمَ التعلل بالآمال تخدعكم وانتم بين راحات القنا سلب
كم تظلمون واستم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب
فشمروا وانهضوا للامر وابتدروا من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

ثم يلتفت الى الترك ليقول عنهم :

سلاحهم في وجوه القوم مكرهم وخير جندهم التدليس والكذبُ
لايستقيم لهم عهد اذا عقدوا ولايصح لهم وَعْدٌ اذا ضربوا

وبعدها ، يعود الى مخاطبة قومه بقوله :

لادولة لكمْ يشتد أزركم بها ولاناصر للخطب ينتدبُ
أقداركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين أيدي الترك مغتصب
ألستم من سطوا في الارض واقتحموا شرقاً وغرباً وعزوا أينما ذهبوا

وللبازجي قصيدة ثورية اخرى، أحدثت عند نشرها دوياً عظيماً ، واعتقل بسببها عدد من خيرة الاحرار ، يقول فيها :

دع مجلس الغيد الاوانس وهوى لواحظها النواعس ...
أي النعيم لمن يبيت — على بساط الذل جالس
ولمن أزمته بكف عدا — ه يظلم وهو آيس
ولمن تباع حقوقه ودماؤه بيع الخسائس
ولمن يرى أوطانه خرباً كاطلال دوارس

ثم يصف الترك ويدعو للتمرد على حكمهم ، والقضاء على طغيانهم الذي جاوز كل حد :

فالترك قوم لايفوز — لديهم إلا المشاكس
أو لستم العرب الكرام — ومن هم شمّ المعاطس
فاستوقدوا لقتالهم نـاراً تروع كل قابس
عمت قبائحهم فأضحت — لاتحيق بها الفهارس
حال بها طاب التبسم — للوغى والموت عابس

ويمكن تقدير الأثر البليغ التي أحدثته هذه القصيدة آنئذ ، في نفوس الشباب العربي المتوثب الى الحرية والمجد .

ومن الشعراء الذين عبروا عن النزعة الوطنية الحرة في تلك الحقبة من الزمن ، نجيب حداد ، إذ يقول :

آن الأوان لأن أخاطر بالدم ... من لم يخاطر بالدما لم يسلم
أجزيرة العرب التي أحببتها ... كم من أكف قد رمتك بأسهم
لعبت أكف الترك فيك فغادروا ... في كل قطر فيك نهراً من دم

هذا مجمل النشاط الأدبي من حيث تنوعه واختلافه ، في عهد ساد فيه الحكم الاستبدادي ، ونشط فيه الاحرار لتحقيق انقلاب يقيد سلطة الخليفة العثماني ، ويجعل للشعب رقابة دستورية على اعمال الحكومة .

وقد حمل رجال الاصلاح السلطان عبد الحميد على نشر الدستور عام ١٨٧٦ ، ولكنه ما لبث ان ألغاه . وقد اتصف العهد الحميدي الطويل بالظلم والطغيان ، مما أوهن الدولة ، وفتّ في عضدها وثلم كرامتها ، فانفصلت عنها اقطار في البلقان ، وتداعي بنيانها للسقوط .

ولما استطاع الاتحاديون انتزاع الدستور ثانية ، من طاغية الازمان ، عبدالحميد ، ونشروه عام ١٩٠٨ ، كان لهذا الحدث الهام هزة فرح شديد في البلاد ، من اقصاها الى اقصاها ، واستبشر الناس بعهد جديد ، فاقيمت الحفلات ونظمت المهرجانات الرائعة احتفاءً وحبورا .

وقد وصف الزهاوي بغداد المزدانة احتفالاً بالعهد الدستوري :

وقفت والعين تبكي من مسرتها ... امام شعب من الافراح عجاج
أمام بحر من الافكار مضطرب ... امام جيش من الاصوات رجراج
ان الشعوب اذا هاجت عواطفها ... كالبحر يضرب امواجاً بامواج

ولنسمع الى الدكتور نقولا فياض يبدي ابتهاجه بالدستور :

يابني عثمان إنّـــا أمـــة ... أصبحت موضوع اعجاب الامم
سيعيد الدهر تاريخاً لكم ... طبع المجد بـه منذ القدم
في حمى جيش عزيز باسل ... واسع النعمة ، كشاف الغمم

ويخاطب سعيد شقير جند الجيش التركي ، ويبدي اغتباطه بنجاة الاحرار من النفي والتشريد ، وخلاص الوطنيين من عيون السلطان الذين يراقبون الصحف ، ويزعجون الناس في ليلهم ونهارهم :

اليـوم نمرح احراراً بفضلكم ... نغـدو ونمشي ولا همٌ ولا نصب
قد أطلق الحرمن سجن أهين به ... وعاد للوطن المحبوب مغترب
فلا جواسيس نخشى من وشايتهم ... ولا جرائد تأتينـا فترتعب
ننام في الليل لا الاحلام تقلقنا ... وننهض الصبح لاخوف ولارعب
كم بـين حال أتتنا كلها طرب ... وبين حال عدتنا كلها رهب

وهكذا نرى ان اعلان الدستور، قد ألقى على الادب مسحة من التفاؤل ، فأضاء بالأمل والرجاء ، وحركت الشعر هزة من الاستبشار ، فخفق بالجذل والفرح ... ولا غرابة ، فقد كان ذلك الحدث خاتمة دهر مديد من الجور والاستهتار ، وفاتحة عهد كان من الممكن ان يكون حراً نيرا .

ولكن شوقي ، أمير شعراء العرب ، يأبى ان يرى في الدستور الا منحة سنية ، وهبة شاهانية . وهو لا يدع هـذه الفرصة تفوت دون ان يتمسح بالإعتاب السلطانية ، وكأنه يريد ان يعتذر للسلطان عبد الحميد عن حكمه المطلق وتعسفه الشديد ، فيذكر له مد سكة حديد الحجاز ، وينسب اليـه الكرم والخير ... وانه ما اعطى الدستور ، الا حقنا للدماء ارضاءً لربه :

أسدى الينا امير المؤمنين يداً جلت كما جل في الاملاك مسديها
وليس مستعظماً فضل ولا كرم من صاحب السكة الكبرى ومنشيها
ان الندى والرضى فيه وأسرته والله للخير هاديه وهاديها
خلافة الله في أحضان دولتهم شاب الزمان وما شابت نواصيها
حقنت عند مناداة الشعوب بها دم البرية ارضاء لباريها ...

ولكن دفقة الفرح والرجاء لدى الاحرار ، ورعدة الحزن واليأس عند عبيد التاج ، لم يطل أمدها . ذلك أن السلطان عبد الحميد الذي اعتاد الغدر والبطش ، حاول ان يتخلص من الدستور ، كما فعل في مرة سابقة ، ولكنه لم يفلح فخلع ونصب مكانه أخوه « محمد رشاد » . فعندئذ عادت الطمأنينة الى النفوس واعتقد دعاة الاصلاح من العرب أنهم قد صاروا الى حال من الالفة والتواد مع الاتراك ، وان الدولة لابد قادمة على عهد تجديد وانبعاث ...

ومع ذلك فمن التسرع وقصر النظر السياسي ، أن ينشد الدكتور فياض قصيدة في امتداح الترك قبل أن تتضح خطة الاتحاديين :

قل لأهل الغرب عنا حسبكم ان للاتراك بأساً وكرم
حرروا الشرق وذي افعالهم جددت صبوته بعد الهرم
ولمن يطمع في تفريقنا كان للتفريق عهد وانصرم
غير دين الحب لادين لنا نحن في البؤس سواء والنعم

وكان سقوط الطاغية عبدالحميد رمزاً لانقضاء زمن شديد الحلكة ، وابتداء عهد مشرق الضياء . وقد فرح الادباء الاحرار بعرش الظلم يهوي ، وصنم الشر يتحطم ، وقد عبروا عن فرحهم بكثير من الشعر ، قال احد الشعراء :

مليك قد تسربل بالمخازي وعمّ الارض غدراً واحتيالا

أمير المؤمنين دعـــوه زوراً فكان الذئب لم يعرف حـلالا

ويتحدث معروف الرصافي عن جيش الحريـــة بقوله :

... واسقط ذلك الجبار قهراً وأنبأه بصارمـــه اليقينـا

فقرَّت أعين الدستور أمناً وشاهت أعين المتمردينـــا

ويقطع الرصافي مرحلة جـديدة ، فيلحظ ان ليس عبدالحميد وحـده ، عقابه الخلع وسوء المصير ، بل ان هذه النتيجة سيؤول اليها كل ملك ظالم يستهين بحرية الشعب :

يامولك الانام هـلا اعتبرتم بملوك تجـور في الافعال

فاتركوا الناس مطلقين والا عشتم مـوهنين بالاوحال

ولكن ، وهنا ايضاً ، ينبري شوقي ، الخادم الأمين لارباب العروش ، فيستوحي من شيطانه المريد مرثاة ، من فصيلة « المشرقان عليك ينتحبان »... يبكي وليّ نعمته ويعتذر له ، ويؤيد حقه الالهي في استعباد الناس ، ويعجب ان يحاكمه الشعب ، وهو « ظل الله في أرضه » ، لايصح أن يحاسبه سوى المولى الغفور .. يقول في قصيدته « سل يلدزاً » :

خطب الامام على النظيـ ـم يعز شـرحاً والنثير

شيخ الملوك وان تضعـ ـضع في الفؤادوفي الضمير

نستغفر اللـــه له والله يعفو عن كثير

ونراه عنـــد مصابه أولى ببـاكٍ أو عـذير

ويتابع أمير شعرائنا قصيدته في فيض من العطف والشفقـة ، على « رب السرير » ويغدق عليه العواطف الكريمة :

عبد الحميد حساب مث — لك في يد الملك الغفور
ماذا ادهاك من الامو — ر وأنت داهية الامور
دخلوا السرير عليك بح — تكمون في رب السرير
أعظم بهم من آسرين وبال — خليفة من أسير

كان في ودي أن أعلق على هذه القصيدة وأوضح دلالتها ، فازعم أنها لاتصدر إلا ممن يتعبد للملوك والسلاطين ، يستدر منهم المال ، ويغفر على أعتابهم جبهته . ولكني لو زعمت ذلك لبقي في الامر بعض ريبة ، ولكن صفي الدين الحلي قد نهض وقتئذ بهذه المهمة ، اذ نظم قصيدة يرد بها على « الامير » وقد جاراه في الوزن والروي ، فقال منددا بسيئات عبد الحميد :

ان الثلاثين التي مرت بنا مر العصور
وهبتك تجربة الامو — ر فعشت في جهل الامور
من كان يدعوك الخبـ — ـير فلست عندي بالخبير

ثم يشير الى شوقي ، مؤنبا ساخرا :

لما أديل عن السري — ـر بكاه عبّاد السرير
أسفوا عليه وانما أسفوا على المال الدرير
طلبوا له عفو الغفو — ر وشذ عن عفو الغفير ..

وينتظم في سلك شوقي ، رفاقه في الاخلاص لبني عثمان ، والولاء لاصحاب التاج والصولجان ، فيقول حافظ ابراهيم :

أنت عبد الحميد والتاج معقود وعبد الحميد رهن القيود
خالد أنت رغم أنف الليالي في كبار الرجال أهل الخلود

اجل خالد ، ولكن في زمرة نيرون واضرابه من جلادي الشعوب ومصاصي الدماء ، في كافـــة العصور .

وينشر الدستور ، ويلتئم المجلس الذي انتخبته الأمة لسن القوانين ومراقبة الحكام ولكن سرعان ماخابت الظنون وتلاشت الآمال اذ حصر الاتحاديون الحكم في أيديهم ، واختطوا سياسة عنصرية ، سلكوا في تنفيذها سبيل العنف والشدة . أما الحرية والمساواة اللتين كانتا رجاء جميع الناس ، فلم تبدُ منها بارقة ، واما الرقي والعمران ، وهما أمنية الاحرار ، فلم يظهر لهما من أثر . فلم يكن عجباً أن يعاود النفوس التشاؤم ويصيب اليأس كل من تطلع الى حكم عادل وتقدم شامل .

ولم يستطع الناس اخفاء ماساورهم من القنوط والنقمـــة فعم التذمر ، وانتشرت الشكوى . وها ان الرصافي يعبر عن شعور العرب ، فيقول :

فهل أيها الدستور تسمع شاكياً ... بك اليوم رجو أن نرى نهضة الشرق
لقد جئت من أفق الصوارم طالعاً ... علينا طلوع الشمس من منتهى الافق
فصادفت فينا أمـة قـــد تعشقت ... لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشق
وظللنا نرجي منك للخرق رافعاً ... ولكن تراخي الامر متسع الخرق

وللشاعر ولي الدين يكن قصيدة رائعة « بين أنقاض الوطن » يصف بها حال الدولة العثمانية ، في عهد الدستوريين :

حلمنا بشيء وانتهينا بضده ... وما بجتني من كاذب الحلم حالمُ
أقيم بناء بالعراء على شفا ... ولم تقوَ آساس له ودعائم
فما ظن منه قائماً فهو مائل ... وما ظن منه بانياً فهو هادم
وأربعة مرت ولم تحلُ لامرىء ... تهادت على الاقطار وهي سمائم
تعوض يأساً من غدا وهو آمل ... وشام يقيناً من سرى وهو واهم

ويشير الشيخ سليمان التاجي الفاروقي الى خيبة آمال العرب من الاصلاح الدستوري ، يقول :

كنا نعلل بالدستور أنفسنا ... بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقب
حتى اذا جاء لم يحدث لنا حدثاً ... ولا استجيب لنا في مطلب طلب

وفي قصيدة أخرى يخاطب الفاروقي نواب العرب بقوله :

الا نهضة شرقيـــة عربية ... تزلزل أقواماً وتوهي رواسيا
وتقضي على كل امتياز وأثرة ... ويصبح كل الناس فيها سواسيا

وقد نظم عبد الحميد الرافعي قصيدة حينما أخذ الاتراك الاتحاديون باظهار سياستهم العنصرية البغيضة ، يقول فيها :

هبوا بني العرب، إلامَ الكرى ... وقد دهى الآمال دهاسها
طلبتم الاصلاح من عصبة ... توتر بالافساد أقواسها
فكم تقيمون على ذلة ... وروضة الصبر ذوى آسها
ألستم نسل القروم الألى ... تنتعل الهامات أفراسها
فجردوا العزم الذي طالما ... شق صدوراً طال وسواسها

ثم ينعي على حكومة الاتحاديين سوء ادارتها ، ويدعو الى الاتحاد :

ماهمهـا في دور حكامها ... إلا بأن تملأ أكياسها
فلنتحد فعلاً على همـة ... تهتاج بالتوحيد أقباسها
وتنعش الانفس من أمـة ... تلهبت بالذل أنفاسها

ولما حاولت الدولة العثمانية الحط من لغة العرب تنفيذاً لخطة التتريك ، هال العرب أن يمسّ تراثهم الفكري ، فزكت الحماسة القومية في شتى الاقطار

العربية ، وفي بلاد المهجر ، وانبرى ادباؤهم وشعراؤهم يردون على مزاعم الترك ويسفهون أقوالهم وينتقدون أعمالهم ، ويشيدون بمجد العرب وفضلهم على مرّ الزمن . وهذه قصيدة للمناضل الوطني يوسف حيدر ، يقول فيها مخاطباً الترك :

... فقل لجهول راح يثلم عرضهم ... ولم يدر ان الويل من أجلهم طرا
خلافتكم كانت بقايا فخارهم ... ونلتم هدى الايمان من فضلهم طرا
فلا عرب ذي قار صلتها سيوفكم ... ولا صنتم عن فارس عرضكم قهرا
فدع عنك ياهذا مباراة معشر ... إذا ذكروا فالكون يذكو بهم بشرا

ثم يندد بسوء سياسة الاتراك فيقول :

يريدون منا أن تموت نفوسنا ... ونرحب في أفعال طيشهم صدرا
يريدون منا أن تطيش حلومنا ... وان نخفض الاصوات في مجلس الشورى

وبعد ذلك يتلفت الى العرب يستنهض عزمهم :

اليكم بني الاعراب أدفع قصتي ... لابلغ فيها من لدن قومنا عذرا
لعلي أرى من عزمكم مايسرني ... ومن جدكم ماتعظمون به قدرا

وفي المهاجر يرتفع صوت العرب الاحرار عالياً ، منادياً بحق العرب ، ومذكراً بفضلهم وعزهم . فلنسمع الى الشاعر رشيد أيوب يقول من قصيدة له:

ألسنا الألى سادوا العباد ودوخوا ... البلاد وأبدوا في الحروب عجائبا
وقصر عن ادراكهم كل لاحق ... غداة امتطوا ظهر العلى والمناكبا

ومن أمريكا الجنوبية أيضاً يتعالى نداء الشعراء حاراً حريئاً ، داعياً الى الحرية والانعتاق من نير الترك . قال ابو الفضل الوليد من قصيدة :

العربية ، وفي بلاد المهجر ، وانبرى ادباؤهم وشعراؤهم يردون على مزاعم الترك ويسفهون أقوالهم وينتقدون أعمالهم ، ويشيدون بمجد العرب وفضلهم على مرّ الزمن . وهذه قصيدة للمناضل الوطني يوسف حيدر ، يقول فيها مخاطباً الترك :

... فقل لجهول راح يثلم عرضهم ولم يدر ان الويل من أجلهم طرا
خلافتكم كانت بقايا فخارهم ونلتم هدى الايمان من فضلهم طرا
فلا عرب ذي قار صلتها سيوفكم ولا صنتم عن فارس عرضكم قهرا
فدع عنك ياهذا مباراة معشر إذا ذكروا فالكون يذكو بهم بشرا

ثم يندد بسوء سياسة الاتراك فيقول :

يريدون منا أن تموت نفوسنا ونرحب في أفعال طيشهم صدرا
يريدون منا أن تطيش حلومنا وان نخفض الاصوات في مجلس الشورى

وبعد ذلك يتلفت الى العرب ينشنهض عزمهم :

اليكم بني الاعراب أدفع قصتي لابلغ فيها من لدن قومنا عذرا
لعلي أرى من عزمكم مايسرني ومن جدكم ماتعظمون به قدرا

وفي المهاجر يرتفع صوت العرب الاحرار عالياً ، منادياً بحق العرب ، ومذكراً بفضلهم وعزهم . فلنسمع الى الشاعر رشيد أيوب يقول من قصيدة له:

ألسنا الألى سادوا العباد ودوخوا البلاد وأبدوا في الحروب عجائبا
وقصر عن ادراكهم كل لاحق غداة امتطوا ظهر العلى والمناكبا

ومن أمريكا الجنوبية أيضاً يتعالى نداء الشعراء حاراً جريئاً ، داعياً الى الحرية والانعتاق من نير الترك . قال ابو الفضل الوليد من قصيدة :

ولما رأيت الناس يبنون مجدهم بكيت على آثارنا العربيـــة
نما زهرهم في روضهم متجدداً وقد يبست أزهارنا بعد نضرة
لئن كان في الحرية الحلوة الردى فياحبذا موتي لتحرير أمتي
بني أمِ هل من نهضة عربية لصيحاتها يهتز ركن البرية

ولكن هذه الحال لم تدم طويلاً ، إذ عاجلت الحرب العامة الدولة العثمانية بالانهيار ، ولكن حكم الاتحاديين قد نبه العرب الى حقوقهم ، واثار مشادة عنيفة بينهم وبين الترك ، كان لها صدى بعيد في الحياة الادبيـــة والقومية . وقد اقنعت هذه « التجربة الاصلاحيـــة » العرب بان لاسبيل الى الحرية والاستقلال إلا بالانفصال عن الاتراك ، والاعتماد على أنفسهم في انشاء دولة عربية تعيد إلى الأمة مجداً وعزاً ، وتكفل لكافة العرب رخاء وسعادة .

الحرب والثورة العربية

لما أعلنت الحرب العالمية الاولى ، امتد لهيبها إلى معظم أقطار العالم ، وقد أثارتها الدول الطامعة في التوسع والسيطرة ضد دول امتدت في الاستعمار والاستثمار امتداداً جعلها موضع حسد الدول الاولى ومنافستها . وان كان للجماعات الحاكمة دافع الى الحرب ، وهو ماتؤمل من ربح واستغلال ، فلم يكن لكافة الشعوب غرض منها ولا غاية ، ولكنها سيقت الى الكارثة تحت ستار كثيف من الدعاية الوطنية او الادعاء بالمبادىء الحرة .

ودخلت الدولة العثمانية المجزرة الكبرى بجانب المانيا ضد الحلفاء . وكانت هذه الحرب محكاً لسياسة الاتراك الاتحاديين الذين كان بيدهم زمام الامور في الدولة ، فاتضحت أهدافهم ، وبانت خططهم ، فاذا بهم يبيتون للعرب كل شر ،

وأخذ السفاح « جمال باشا » بعدئذ ينتقم من العرب، ويبطش بقادة الحركة التحريرية ، وينكل بدعاة الاستقلال ، فأرهق الاهالي بالضرائب ، وألغى الحكم الذاتي في لبنان ، ومنع عنه المؤن ففتكت المجاعة بسكانه ، ومات منهم الألوف الكثيرة .

وقد حاول العثمانيون اشراك العرب في الحرب ، متذرعين بالدين والخلافة وهما ما يربط العرب بهم ، فأعلن السلطان وشيخ الاسلام وكثير من العلماء فتاوى لدعوة المسلمين كافـــة للذود عن دينهم وبلادهم ، وذلك لاعطاء تلك الحرب صفة الجهاد المقدس .

بيد ان العرب كانوا قد نقموا على سياسة العثمانيين في الارهاب ، وتيقنوا ان استقلالهم لاينال الا بالثورة والعنف ، وان قضيتهم الوطنية قـد آن الوقت لان تصبح هدفهم المباشر وغايتهم الغالية العاجلة . وكان « الحسين بن علي » شريف مكة نصيراً للحركة الوطنية ، مجبذاً انفصال العرب عن الدولة العثمانية ، وقد وجد فيه الاحرار العرب معيناً لهم وقائداً ، اذ هيأه لذلك نسبه المتصل بصاحب الرسالة ، ومركزه الديني ونفوذه في الحجاز .

وكان الحلفاء في الوقت عينه يبحثون عن حليف لهم ضد العثمانيين ، فرأوا في « الشريف حسين » اقدر زعيم يمكن الاعتماد عليه في مناوأة الاتراك واثارة العرب ضدهم . ولكن الشريف ، رأى من الضرورة بمكان ، الاتفاق مع الحلفاء للحصول على وعـد قاطع باستقلال العرب ، وبنيل المساعدة بالمال والسلاح للقيام بالثورة .

وفي الرسائل الرسمية التي تبودلت بين الشريف حسين واللورد هنري

مكماهون ، المفوض السامي الانكليزي في مصر ، تعهدت الحكومة الانكليزية باسم الحلفاء ، بانشاء دولة عربية مستقلة تمتد من الخليج الفارسي الى حدود كيليكيا وحتى حدود مصر . ولكن الحكومة البريطانية قد أبدت بعض التحفظات التي لم يرض بها الشريف حسين ، فأجل البتّ بها الى مابعد الحرب. وبينما كان الحلفاء يمدون العرب بالمساعدة ، ويعدونهم بالاستقلال ، عقدت انكلترا وفرنسا معاهدة « سايكس بيكو » السرية التي تنص على اقتسام البلدان العربية بين هاتين الدولتين المستعمرتين .

أما الثورة العربية فقد انبعثت من الحجاز ، وأطلق الشريف الرصاصة الاولى في ١٠ حزيران ١٩١٦ ايذاناً باعلان الثورة ، وتشكلت وزارة عربية ، وبويع الحسين ملكاً على العرب في ٥ تشرين الاول عام ١٩١٦ .

وحرر الجيش العربي الذي كان يقوده الأمير فيصل ، الحجاز ما عدا المدينة المنورة . وقد انضم عدد وافر من الضباط والجنود العرب من سوريين وعراقيين ومصريين الى صفوف الثوار ، وقدم الانكليز المال والسلاح لهم ، فاشتد ساعدهم فتقدموا الى سوريا وعطلوا اربعين ألف مقاتل من الاتراك .

وفي ٢ تشرين الاول عام ١٩١٨ دخل الجيش العربي دمشق ثم اتمّ احتلال سوريا ، الساحل والداخل ، وتشكلت حكومة عربية بدمشق . وهكذا قطع العرب مرحلة واسعة في طريق التحرر السياسي والنهوض القومي ، بعد ان سطروا بالدماء ، صفحات مجد وفخار في تاريخ الحرية .

أدب الحرب والثورة

لقد كان للاحداث السياسية والوطنية التي أتينا على ذكرها ، صدى في

الأدب ، وهل الادب الا صورة لحياة الأمة بمختلف اشكالها وشتى الوانها ، وتوجيه لتلك الحياة ، نحو الخير والحرية والسعادة .

لقد مرّ ان « جمال باشا » قد أرسل الى الاستانة بعثة من رجال الادب والوجاهة في سوريا لمشاهدة قوة الدولة وعظمتها واظهار إخـــلاص العرب وتأييدهم للسلطان والحـكومة . ومن رجال هذه البعثة علي الريماوي الذي قال :

يارجـل الملك إنا أمـة ... لا ترى عن آل عثمان بديلْ
حيّهايا وفد ، حيّ جندهـا ... قاهر الاعداء بالسيف الصقيل
نصر الدين وأعلى شأنـه ... فغدا الاسلام في ظل ظليل

والريماوي نفسه ، ينشد « جمال باشا » قصيدة ، عند عودته من الرحلة ، يصف زيارته مع أصحابه للسلطان وولي العهد ، وما شاهدوا من حفاوة وما القوا من خطب ... يقول فيها :

فجئنا الى دار السعادة والمنى ... محط رحال العز ، والعز يقصد
وزرنا عميد الملك يسمو عماده ... وزرنا ولي العهد بالفضل يعهد
تحف بنا القواد من كل جانب ... وأقطاب دار الملك تحفى وتحفد
خطبنا لهم جماً وقد خطبوا لنا ... وأنشد منا القائـلون وأنشدوا
مجالس كانت كالربيع بواسماً ... ذكرنـاك فيها والحقيقة تشهد

اما بدر الدين النعساني ، احد رجال البعثة أيضاً ، فيغدق المديـح على « جمال باشا » بسخاء فهو السيف الصقيل ، والقائد المقدام ، رفيـــع الهمة ،

طاهر الخلق ، كريم المحتد. اما نفس الشاعر وفكره وأدبه وقوافيه فوقف على مديح « صديق » العرب ، و « نصير » الحرية ، جمال باشا ! فاسمعه يقول :

رمى الله منك الانكليز بصارم ... صقيل يقد الهندواني غامدا
عتوا وأبوا الا لقاءك في الوغى ... أراهم بما راموه منك حصائدا
لقد عز جيش كنت فيه رئيسه ... وعزت جموع كنت فيهن رائدا
فلم أرَ مثل اليوم أرفع همة ... وأعظم آثاراً وأكثر حاشدا
وأطهر أخلاقاً وأصفى سريرة ... وأنجب مولوداً وأكرم والدا
وقفت على عليائك فيض يراعتي ... ونفسي وفكري والقوافي الشواردا

أما في مصر ، فقد طرأ على الحال السياسية بعض التغيير ، ذلك ان بريطانيا أعلنت نظام « الحماية » بدلا عن الاحتلال وأقصى الانكليز « عباس حلمي » الذي كان يخص العثمانيين بعطفه وصداقته ، ونصبوا مكانه السلطان « حسين كامل » ... وهنا تحدث المعجزة ، اذا جاز التعبير ، في دنيا الادب والشعر ، اذ ينقلب احمد شوقي وفي ركابه حافظ ابراهيم واسماعيل صبري الى امتداح الانكليز والاشادة بمفاخرهم ، بعد أن عرفناهم مخلصين للعثمانيين ، ولا يشق لهم غبار في مدح سلاطينهم .

قال شوقي معتذراً باسفاف ظاهر عن مدح الخديوي عباس :

الله يعلم ما كفرت صنيعة ... في ذا المقام ولا جحدت جميلا
أخون اسماعيل في ابنائه ... ولقد ولدت بباب اسماعيلا
ولبست نعمته ونعمة بيته ... فلبست جزلا وارتديت جميلا

ثم يضفي على المستعمرين أبهى الحلل ، ويضفر لهم أكاليل الغار . ولا غرابة

أن يرى شوقي الانكليز يتصفون بالعاطفة الرقيقة ، ويتميزون بالعزة والمنعة ، والعدل والسماحة ، وقد رأى هذا كله في العثمانيين من قبل ، فهو يقول :

حلفاؤنا الاحرار الا انهم ... ارقى الشعوب عواطفاً وميولا
أعلى من الرومان ذكراً في الورى ... وأعز سلطاناً وأمنع غيلا
لما خلا وجه البلاد لسيفهم ... ساروا سماحاً في البلاد عدولا

ويخطر لي ، قبل ان تفوتني الفرصة ، ان أتقدم بسؤالين ، ولن انتظر جواباً عليها . أوجه اولهما لمن يفسر ولاء شوقي للعثمانيين بان في عروق الشاعر دم تركي ، فهل تربطه بالانكليز رابطة النسب ام ان لسانه يدور مع الفلك ، ويجري مع تقلبات الدهر ، وهو ابداً في خدمة اصحاب الحكم وارباب السلطنة ؟ اما ثانيهما فأوجهه لمن ينادون بحريـــة الاديب ، أيكون الشاعر حراً في امتداح مستعمري بلاده ، وجلادي شعبه ، ومستثمري وطنه ؟

أما حافظ ابراهيم فيجاري صاحبه فيقول عن الانكليز :

لهم ملك على التاميز أضحت ... ذراه على المـــعالي تستهل
وليس كقومهم في الارض قوم ... من الاخلاق قد نهلوا وعلوا
فان صـادقتهم صـدقوك وداً ... وليس لهم اذا فتشت مثل ...

هذا هو الاتجاه الحكومي ، إن في سوريا وإن في مصر ، في مطلع الحرب العالمية الاولى ، فهنا وهناك قام بعض الشعراء يؤيدون الحكام في خوض الحرب ، وجر الشعوب الى القتال . ولكن من جانب آخر ، ارتفع صوت بعض الشعراء ، معبراً عن ميول الشعب العربي وأمله ، وعن مصالحه ورأيه . وهـذا التيار الشعبي في الأدب كان صادقاً في دلالته إذ لم يجن العرب من الحرب في بدايتها سوى الاضطهاد الشديد والارهاب الاسود والمجاعات والامراض الفتاكـة ؛

وسيقت جماعاتهم الغفيرة الى ميادين القتال في اسوأ الشروط المعاشية والمعنوية، وليس القتال بين البشر ، إلم يكن لدفع عدوان ، او قمع ظلم ، أو رد استعمار الا صورة لحياة الغاب ، بل هو اكثر همجية ، واوفر شرا .

ولنصغ لشاعر العراق جميل الزهاوي يصف الحرب :

في كل ارضٍ وصقع مدافع ثائراتُ
يقتلن كل فتى قد تفيد منه الحياة
وليس يبقين الاّ أراملاً ويتامى

هناك بحر خضم يجري ليغمر بحرا
هناك بركان نار تسعى لتأكل أخرى
هناك جيش لهام يؤم جيشاً لها ما

من قارعات صباحاً يهتز منها المكان
وبارقات مساءً يحمر منها الدخان
وناسفات بليلٍ يبعثن موتاً زؤاما

القتل قتل ذريع والخطب خطب جسام
فوق الرغام دماء يحمر منها الرغام
والأرض تشرب منها ولا تبلّ أواما

ولكن هذه الظروف التي اكتنفت العرب في بداية الحرب ، سرعان

ماتبدلت . وكانت حادثة إعدام الوطنيين فاجعة قومية زادت الناقمين على الدولة نقمة ، وخرجت باصحاب الاعتدال عن الاعتدال ، وبذرت في نفوس العرب جميعاً بذور التمرد والثورة . وقد عملت هذه الحادثة على التوحيد بين قلوب العرب فاجتمعت فرقهم وتآلفت طوائفهم لمواجهة خطر داهم وشر شامل . فكان طبيعياً أن تهيج هذه النكبة النفوس عامة ، وتثير قرائح الشعراء ، وتكون معيناً لاينضب لاهل القريض ، يعبون منه قصائد خالدات في الوطنية والحرية .

قال الشاعر رضا الشبيبي في العراق مخاطباً الاتحاديين :

قيضتم لحفاظ الملك طائفة ... لغيرها الملك والأجناد والدول
قوم من العرب وخز النحل أريهم ... وحظ قوم سوانا الاري والعسل
عند المغانم تنسونا ويفدحنا ... من المغارم ثقل ليس يحتمل
أين الرهين بأموال لنا ذهبت ... ومن يقيد باخوان لنا قتلوا
إما شهيد معلى فوق شاهقة ... او موثق بحبال الأسر معتقل

ولعل أشهر ما نظم في رثاء هؤلاء الشهداء الابطال ، قصيدة جميل الزهاوي « النائحة ». وفيها وصف شامل مؤثر لموت دعاة الحرية على المشانق ، وفضح لمقاصد رجال الحكم الرامية الى القضاء على لغة العرب ومجدهم . وتتجلى في هذه القصيدة عاطفة حزينة صادقة ، وفكرة وطنية واعية ، ونسج خيالي رائع ، وأسلوب رقيق ممتع ، ولعلها من أجود ما أوردناه من الشعر في هذا الفصل ... يقول :

على كل عود صاحب وخليل ... وفي كل بيت رنة وعويل
علاها ومن غير الحمية سلم ... « شباب تسامى للعلى وكهول »

لقد ركبوا كور المطايا يحثهم ... الى الموت من وادي الحياة رحيل
رجال عليهم من سنا الفضل رونق ... وللمجد فيهم غرة وحجول
مشوا في سبيل المجد يحدوهم الردى ... وللحق بين الصالحين سبيل
... قبور ببيروت وأخرى بجلق ... تجر عليها للرياح ذيول
بني يعرب لا تأمنوا الترك بعدها ... بني يعرب إن الذئاب تصول
... تريد لمجد العرب فيما أتيته ... زوالاً ومجد العرب ليس يزول
وراءك لا تقرب رواسي يعرب ... فقرب رواسيها عليك وبيل

وكان لشعراء المهجر مشاركة في هذا الشعر البطولي الذي يخلد تضحيات الامة ، ويرفع شهداءها الى مدارج المجبة والاجلال .

ولعل الشعراء المغتربين أشد حمية وأكثر حماساً من شعراء الوطن الأم لأن حنينهم الى بلادهم ، واشتياقهم الى مغاني الجمال التي شهدت طفولتهم وفتوتهم ، ولهفتهم الى أرض مباركة ضمت بين جوانحها آباءهم وأجدادهم ، كل ذلك يزكي في قلوبهم الشعور القومي ، ويغذي في نفوسهم النزعة الى الحرية والانعتاق من نير الاستبداد .

يقول ابو الفضل الوليد في قصيدته « ليحي العرب » :

بلاد الشام غادرك الكرام ... فعيش الحر فيك اذن حرام
لقد كثرت من العرب الضحايا ... ولم يهتز في الغمد الحسام

ثم ينتقل الى مخاطبة قومه العرب :

وحتام المخافة من علوج ... لهم ذم وليس لهم ذمام
يرون محبة الاوطان جرماً ... به تهوي من الاحرار هام

لقد قتلوا العواطف والمزايا ففي احشائنا منها سهام
أنبقى ساكتين بلا حراك وللثورات حولينا اضطرام

وللشاعر القروي مثل هذه النفثات الشعرية التي تذكي في النفوس الروح الوطنية ، وتغذي في القلوب محبة البلاد العربية أقصد الشعب العربي ، فهو يقول من قصيدة :

فلتنحن الهام إجلالاً وتكرمة لكل حر عن الاوطان مات فدى
يا أنجم الوطن الزهر التي سطعت في جو لبنان للشعب الضليل هدى
قد علقتكم يد الجاني ملطخة فقدست بكم الاعواد والمسدا
بل علقوكم بصدر الأفق أوسمة منها الثريا تلظى صدرها حسدا
اكرم بحبل غدا للعرب رابطة وعقدة وحدت للعرب معتقدا

وفي الحقيقة ، كان اعدام شهداء اليوم السادس من أيار منطلق الحركة العربية التحريرية ، ومبعث نهضة العرب الصحيحة ، ولا تزال الاعياد تقام لذكراهم الخالدة ، وتضفر لهم القصائد والخطب لتتوج بها هاماتهم عزاً وفخراً وجلالا .

وعندما انطلقت الثورة العربية تدك معاقل الظلم ؛ وتجرف سدود الطغيان ، أججت في نفوس العرب جذوة حماس زاد اتقادها على الزمن ، وقد كانت حافزاً للشعر الوطني ، الذي وصف أحداثها ، وخلد وقائعها ، وأمدها بغذاء روحي لاينضب . فلنسمع الى الشاعر فؤاد الخطيب يخاطب الاتحاديين :

يا آل جنكيز إن تثقل مظالمكم على الشعوب فقد كانت لها نعما
فالظلم أيقظ منكم كل ذي سنة ما كان ينهض لولا أنه ظلما

ثم يتحدث عن الثورة ، واصفاً ، مفاخراً ، ومحرضاً ، قال :

فقد تكلم صوت النار مرتفعاً ... من الحجاز فشق البيد والأكما
من ذلك البيت ، من تلك البطاح على ... تلك الطريق مشت أجدادكم قدما
من كل أروع وثاب إذا انتسبت ... بعض الصوارم كان الصارم الخذما
الى الشآم ، إلى أرض العراق ، إلى ... أقصى الجزيرة سيروا واحملوا العلما

ويعدد الشاعر خير الدين الزركلي مظالم الاتراك ، مشيراً الى اعدام جمال باشا للوطنيين الأحرار ، ثم يذكر بابتهاج انتصارات العرب في الحجاز والشام ، قال :

عتا أحفاد جنكيز فساقوا ... سلاسل يعرب سوق العبيد
فكم قتلوا من الاخيار صيدا ... وكم ساموا المهانة من عميد
وكم حملوا على الأعواد ظلماً ... وكم سقوا المنية من شهيد
.. بروق في الحجاز ومضن وهناً ... فكان بجلق قصف الرعود

وكان الظفر للثورة ، للشعب العربي المناضل لنيل حريته واستقلاله . هكذا روى التاريخ أن كل أمة عزمت أن تخلع نيراً أذلها ، وترد عدواً استعبدها ، لابد أنها مدركة هدفها ، مهما بعدت الغاية وشق المسير . ولكن هذه الدوحة المباركة ، دوحة الحرية والاستقلال لا ترتوي إلا بالدموع والدماء .

ويعبر الشاعر الزهاوي عن الغبطة الدافقة التي سرت في نفوس العرب ، في قصيدته الشهيرة « النائحة » :

وجاءت خيول العرب تعدو وراءها ... بمقربة للانكليز خيولُ
هنالك أهل الشام صاحوا وكبروا ... وكبر أعلام بها وسهولُ

وكان لأخذ الثأر قد ثار ضيغم له في مغـــار الغابتين شبول
أغر كريم الأصل من فرع هاشم فطاب له فرع وطـــاب أصول

وهـكذا لم يلق العرب سلاحهم ، ولم يغمدوا سيوفهم إلا والبـــلاد العربية جمعاء ، قد خلصت من سيطرة العثمانيين التي دامت أربعة قرون . وفي هذه الفترة ، حسب العرب أن الوحدة ،أملهم الغالي ، قد أصبحت واقعاً ، وان الاستقلال التام في حكم بلادهم ، حلمهم المنشود ، أضحى حقيقة ؛ ولكن الدول الاوروبية الحليفة تنكرت بعد النصر لمن ساعدها على احرازه ، وأبطل الاستعمار الجشع كل وعد أقطعه ثم رأى فيه انتقاصاً من سيطرته ، وحداً من اطماعه .

بين الحربين العالميتين

عندما كان الجيش العربي بقيادة الامير فيصل بن الحسين يتقدم عبر الاردن متجهاً إلى سوريا ، كان الجيش الانكليزي يزحف في سوريا الجنوبية متجهـاً نحو شمالها ، ودخل الامير فيصل والانكليز دمشق في وقت واحد تقريباً . وفي ١٠ تشرين الاول ، احتلت القوات الفرنسية بيروت ثم الساحل السوري باجمعه.

وسافر الامير فيصل الى أوربا ليمثل والده الملك حسين في مؤتمر الصلح وخطب في المؤتمر بباريز ، ودافع عن حق العرب في السيادة والاستقـلال . ولكن المؤتمر قرر ايفاد لجنة لاستفتاء الاهالي في نوع الحكم الذي يؤثرونه ! وكانت لجنة التري الاميركي « تشارلس كراين » .

وعاد الامير فيصل الى سوريا ، ودعا الشعب لانتخاب ممثلين عنه ، فتشكل « المؤتمر السوري » الذي أسرع الى رفض المعـاهدات السرية المعقودة بـين الحلفاء كما رفض وعد بلفور الغاشم . ولكن الحكومتين الانكليزية والفرنسية

اتفقنا في ١٩ ايلول عام ١٩١٩ على اقتسام سوريا !

وعاد الامير فيصل الى الغرب محتجاً على السياسة الاستعمارية ، فأهمل رأيه الانكليز ، واضطره الفرنسيون الى عقد اتفاق جائر ينتقص من حق العرب . وعند رجوعه رفض المؤتمر السوري هذا الاتفاق ، وأعلن في ٧ نيسان ١٩٢٠ استقلال سوريا ، ونادى بالامير فيصل ملكا عليها في اليوم الثامن منه .

ولكن المستعمرين الطغاة ، التأم مجلسهم في « سان ريمو » وقرروا وضع وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، وفلسطين والعراق تحت الانتداب الانكليزي ، ساخرين بحق الشعوب في تقرير مصيرها ، هذا المبدأ الوهمي الذي أعلنوه أثناء الحرب للتغرير بالشعوب .

وهكذا وجد العرب أنفسهم بعد الحرب ، أمام قوى أجنبية تبغي الاستعمار والتحكم بالبلاد ، فأخذوا في نضال قاس ضدها استغرق ربع قرن ، حتى شبت الحرب العالمية الثانية ، وسنرى الى هذه الصفحات الرائعة من كفاح العرب المجيد في سبيل الحرية والاستقلال .

وقد كان للادب العربي مشاركة فيما عرض للامة من أحداث ، فما كاد المستعمر يبدي نواياه السيئة ، حتى هب الشعراء ينبهون العرب الى الخطر المحدق بهم ويدعونهم الى دفعه . قال الغلاييني يحرض الشعب العربي على حماية استقلاله من غدر الغادرين :

هبوا فأمتكم أمست على خطر ... جارت عليها الأعادي جور منتقم
حتى تسيل ربوع الشام مفعمة ... دماً يسيل الردى في سيله العرم

وذمة العرب والأيام شاهدة لنخرمن الوغى في السهل والظلم
حتى يخلوا بلاد العرب أجمعها من ساحل الروم حتى ساحل العجم

ويرثي الرصافي « الملك حسين » عند موته ، ثم ينتقل الى ذكر وعود الحلفاء الكاذبة ، وخيانتهم لمن مد لهم يد العون ، يقول :

... وأثبت بالسيوف لنا حقوقاً مؤيدة بكل دم سفيك
ولكن غشه الحلفاء حتى أتوه من الثعالب في مسوك
وخانوا لم يفوا بعد انتصار بما كتبوه في بطن الصكوك
وكم وعدوا بني قحطان وعداً به انقلب اليقين الى شكوك

ويصور هذا الشاعر خطة الاستعمار وغايته في قصيدته « الحق والقوة » . أما خطته فأسر واستبداد ، واما غايته فنهب واستثمار ، يقول :

وكم قد سمعنا ساسة الغرب تدعي باشياء من بطلانها ضحك الحقُ
فهم منعوا رق الأسير وانما أجازوا لهم ان يشمل الامم الرق
ألم ترَ في القطر العراقي أمة من الأسر مشدوداً باعناقها ربق
قد اختط فيه السيف للقوم خطة من العنف لم يمرر بساحتها رفق
... تجر قيود الذل راسفة الى تكاليف حكم في سياسته المحق
ويحلب شطريها العدو ضرائباً ويمخضها درّاً كما يمخض الزق

وهكذا يسام الادب ، باوفى نصيب في محاربة العدوان ، بفضحه واعلانه للناس في شره وقبحه ، وفي دفع الشعب الى العمل لاسترجاع حقه من كل عدو باغٍ .

وعندما أمت لجنة كراين العراق لاستفتاء السكان واستطلاع آرائهم ، أقام

الحزب الوطني في بغداد حفلة لتكريمها . فأنشد الرصافي قصيدة يعرض فيها حال العراق مع مستعمريه ، ويندد بموقف الغرب من العرب :

جئت يامستر كراين ... فانظر الشرق وعاينْ
فهو للغرب أسير ... أسر مـــديون لدائن
ان هـذا الشرق والغر ... ـ ـب لمغبون وغابن
وترى الغرب عليه ... واقفاً موقف خائن
غاصباً منـــه المواني ... شاحناً فيـه السفـائن
حافراً فيـــه المعـادن ... نابشاً فيـــه الدفائن
فهو يمتص دماء الـ ... ـ ـشرق من كل الاماكن

وفي هذه الابيات ، نظرة واقعية الى الاستعمار الذي قوامه استثمار البلاد المحتلة ، اغتصاب خيراتها وكنوزها وجهود ابنائها .

ثم ينتقل الرصافي الى وصف خطة الانكليز السياسية :

... بادراً من كيده في ... أهله بذر الضغـائن
حاكمـاً فيـه على اه ... ـ ـليـه حكم المتهـاون
أفهـذي يامحب الـ ... ـ ـشرق افعال المهـادن
أين ماقـد قالـه ولـ ... ـ ـسن يامستر كراين

وبعدها ، يرسم الشاعر حال العراق ، مشيراً الى تدخل الاجنبي في كافة شؤون البلاد ، رغم الصورة العربية في الحكم ، يقول :

واذا تسأل عمـا ... هو في بغـداد كائن
فهو حكم مشرقي الـ ... ـ ـضرع غربي الملابن
وطني الاسم لكن ... انكليزي الشـئاشن

فيـــه للايعـــاز من لا — ـــدن بالامر مكـامن
قـد ملكنـا كل شيء نحن في الظاهر ، لكن
نحن في البـــاطن لاما — ـــلك تحريكاً لساكن

واخيراً يصطنع الرصافي لهجة العنف والتهديد ، ملقياً تبعة ماقد ينشب في الشرق من ثورات وحروب على عاتق الغرب :

... ان في الشـرق تجـاه الـ — ـغرب نيرانا كوامن
سوف ينشق حجـــاب الـ — ـدهر عنهـا بالدواخن
واذا قامت حروب من بني الشرق طواحن
فمن المسؤول عن ذ — ـلك يامستر كراين

النضال ضد المستعمرين

ولكن الحق تضاءل امام القوة ، والسيف نبا تجاه المدفع ، فخابت الآمال التي عقدها العرب على محالفة الغرب ، وحلت التجزئة بين اقطارهم محـــل الوحدة ، والقى الاستعمار ظله الحالك على البلاد ، معرضاً عن رغبة السكان ، وحقهم في اختيار الحكم الذي يشاؤونه . فشرع العرب ، بعد ذلك يجهدون لاحراز الاستقلال ، والتخلص من قيود الاجنبي ، وسار النضال الوطني في طريق جديدة .

اما سوريا ولبنان فقد فرض عليها الانتداب الافرنسي . ولما حاول الملك فيصل الرفض ، تقدم الفرنسيون بمطالب رفضتها سوريا . عنـــدئذ تذرع الجنرال غورو بذلك ، فأمر جيشه بالزحف من الساحل الى دمشق ، وخرج الجيش العربي بقيادة وزير الحربية « يوسف العظمة » واصطدم مع الجيش

الافرنسي في ميسلون في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ . ولكن الوطنية الصادقة والتضحية العظيمة لم تنقذا البلاد من الطائرات والمدافع والمصفحات ، فسقط القائد يوسف العظمة شهيداً وقتل عدد كبير من الجنود والمتطوعين. وبعدها احتل الافرنسيون دمشق وكافة المدن السورية ، واعدموا بعض الوطنيين ، وفرضوا حكومة تأتمر بأمرهم ، وثبتوا حكم الانتداب بالقهر والقوة .

وقام الشعب السوري بثورات عديدة ، ذوداً عن حريته ، أهمها الثورة الكبرى التي شبت عام ١٩٢٥ في عهد المفوض السامي الجنرال « ساراي » ، واشتركت فيها معظم المناطق السورية . وابدى الثوار فيها ضروباً من الشجاعة لا تنسى . وقد استطاعوا احراز بعض الانتصارات الهامة ، ولم تسكن هذه الثورة الا بعد ان تركت سجلا حافلاً بالامجاد . . . وارضاء للسوريين ، دعت حكومة الانتداب الى انتخاب مجلس تأسيسي وضع دستور ١٩٢٨ الذي لم يطبق آنئذ . وبعد اضطرات دامية ، جرت مفاوضات ١٩٣٦ التي أسفرت عن عقد معاهدة لم تكتب لها الحياة .

وعاد الافرنسيون الى خطتهم المعهودة ، وسعوا عبثاً للقضاء على الحركة الوطنية التي كانت في صعود دائم . وقد أخذ النضال الشعبي بالنمو والازدياد ، ودخل في طور جديد ، عندما طرأت ظروف الحرب العالمية الثانية .

أما مصر فقد كانت تابعة اسماً للسلطان العثماني قبل الحرب، وان كان الانكليز قد فرضوا عليها الاحتلال بعد ثورة عرابي باشا عام ١٨٨٢ . ولما نشبت الحرب العالمية الاولى ودخلتها الدولة العثمانية بجانب المانيا ، فرضت انكلترا حمايتها على مصر ، وعزلت « عباس حلمي باشا » وعينت مكانه السلطان « حسين كامل » . وكان المصريون يأملون الحصول على الاستقلال بعد الحرب ، فاعلنوا الحرب

على المانيا ، وقدموا المساعدات التي استطاعوا ان يقدموها الى الحلفاء ، وعند نهاية الحرب أخذ الوطنيون يطالبون بتحقيق الوعد بالاستقلال وألفوا « حزب الوفد » بزعامة « سعد زغلول باشا »، فبادرت انكلترا الى اعتقال زعماء البلاد ، ونفتهم الى جزيرة مالطة . عندئذ نشبت ثورة في مصر اشترك فيها جميع ابناء البلاد ، فأفرج عن المعتقلين واعترفت انكلترا باستقلال مصر ، اعترافا تقيد بعض التحفظات .

ولم يرضَ المصريون بسيادة منقوصة ، فتابعوا نضالهم ، حتى اضطرت الدولة البريطانية الى عقد معاهدة ١٩٣٦ ، التي أتاحت لمصر ان تدخل عصبة الامم كدولة مستقلة عام ١٩٣٧ . وفي هذا العام ذاته ، توفي الملك فؤاد — وهو اول من سمي ملكاً من ابناء محمد علي باشا — فانتقل الملك الى ابنه « فاروق الاول » الذي كان قاصراً آنذاك .

وقد ساعدت مصر الحلفاء اثناء الحرب العالمية الثانية ، وسهلت لهم مهمة القتال ضد الجيوش الفاشية والنازية في افريقيا ، مؤملة ان تعدل معاهدة ١٩٣٦ لتحرز نصيباً أوفر من الحرية والسيادة والاستقلال .

اما العراق ، فقد قرر المؤتمر السوري استقلاله واتحاده مع سوريا سياسياً واقتصادياً . ولكن مؤتمر « سان ريمو » الاستعماري فرض الانتداب البريطاني على العراق ، والحق ادارته بحكومة الهند .

ولكن الشعب العراقي قد استاء من هذا التصرف استياء شديداً ، فاشعل نار الثورة في حزيران ١٩٢٠ ضد المحتلين . وقد استطاع الثوار السيطرة على الريف باجمعه ، بينما لاذ الانكليز بالمدن يحتمون بها .

ولما تفاقم الامر ، اضطر الانكليز لمفاوضة الوطنيين ، فتم الاتفاق على انشاء حكومة عربية وطنية ، واعلان ملكية « فيصل الاول » على العراق . وقد جرى استفتاء شعبي أيد هذا الحل ، وبعدئذٍ عقدت عدة معاهدات عراقية ـ انكليزية ، كانت الاخيرة عام ١٩٣٠ ، وهي تعترف للعراق بحق التصرف في شؤونه الداخلية . وفي سنة ١٩٣٢ أقرت عصبة الامم الغاء الانتداب عن القطر العراقي واعترفت به دولة مستقلة .

ولكن لم يمضِ عام ١٩٣٣ الا وأصيب العراق بوفاة الملك « فيصل » ، فخلفه ابنه « غازي الاول » الذي عرف بصلابته ضد الانكليز وسياستهم الاستعمارية . وقد توفي هذا الملك الشاب بحادث سيارة عام ١٩٣٨ ، فخلفه ابنه « فيصل الثاني » الذي كان ولا يزال قاصراً ، فاقيم له مجلس وصاية برئاسة الامير عبد الاله .

وقد نشبت ثورة في العراق ، أثناء الحرب العامة الثانية بقيادة رشيد عالي الكيلاني ، ولكن الانكليز تمكنوا من اخمادها فعادت البلاد الى وضعها السابق وهي مازالت تناضل للخلاص من كافة القيود ..

اما شرق الاردن فقد نصب عبدالله ، احد اولاد الملك حسين ، اميراً عليها ، وتعهدت انكلترا بحماية هذه الامارة ومساعدتها مالياً . ووقعت معاهدة أردنية ـ إنكليزية عام ١٩٢٨ تضع في يد الحكومة البريطانية جميع شؤون البلاد السياسية والعسكرية والاقتصادية والقضائية .

وبقيت هذه الحال حتى الحرب العالمية الثانية ، فجدد المعاهدة عام ١٩٤٦ ، وتوج عبد الله ملكاً على بلاد الاردن ، ولا تنقص هذه المعاهدة عن سابقتها ، في ربط المملكة الهاشمية بركاب الامبراطورية البريطانية !

اما فلسطين ، فقد كانت ، في عهد العثمانيين جزءاً من بلاد الشام العربية . وهي جغرافياً وتاريخياً قطعة طبيعية من سوريا والبلاد العربية . ولكن مطامع الدول المستعمرة أبت الا ان تجعل منها مسرحاً لنزاع دامٍ بين أصحابها العرب، يؤيد حقهم الصريح فيها ، أقامتهم ثلاثة عشر قرناً بلا انقطاع فيها ، وبشكل اغلبية ساحقة ، وبين قلة من اليهود المتشبعين بالمبادئ الصهيونية ، مختلفي الاجناس واللغات والاوطان ، شاءت القوى الاستعمارية في العالم ان تصطنع منهم دولة ، في هذه المنطقة الجغرافية الهامة التي تتحكم بالبحر المتوسط وترعة السويس ، وتفيض بالثروات الطبيعية التي يتهالك عليها المستعمرون .

الادب في الميدان

لقد أتينا على ذكر اهم الحوادث السياسية التي مرت ببلادنا العربية في فترة قصيرة ، فترة ما بين الحربين ، ولكنها كانت حافلة بالأحداث الجليلة ، غنية بتطوراتها وانقلاباتها ، تمرس شعبنا العربي فيها بمكافحة الظلم والعدوان، فازداد وعياً ونضجاً في عمله القومي وكفاحه السياسي .

وكان للادب ، في هذه الفترة المضطربة من التاريخ العربي ، أثر واضح وشأن ذو بال . وان ما نظم في هذه الفترة من روائع القصيد لا يتسع مجال لذكر جله او بعضه ، فهو منثور في الدواوين والمؤلفات الادبية .

في سورية تدفق سيل الشعر ، يخلد الامجاد والمآثر ، ويهيب بالوطنيين لطلب الحرية مهما غلا الثمن وعز الفداء .

وهذه قطعة شعرية لخير الدين الزركلي ، زاخرة باللوعة والاسى لوقوع البلاد في قبضة الاجانب المعتدين :

ابكي ديارا خلقت للجمال ... ابهى مثال
ابكي نفوسا قعدت بالرجال ... عن النضال
ابكي جلال الملك كيف استحال ... الى خيال

ونسمع الى الشاعر عمر ابي ريشة ، يصف نضال الاحرار ، ومجابهتهم الاخطار والمصاعب ، ويذكر معركة ميسلون الشهيرة يقول :

كم مشينا على الخطوب كراما ... والردى حاسر النواجذ فاغر
والزغاريد في شفاه الغواني ... تدفع الحر لاقتحام المجازر
فشققنا الصفوف دربا فدربا ... وبلغنا الدماء حتى الحناجر
وبقايا آثارنا شاهدات ... لو سألتم في ميسلون المقابر

ورسم أبو ريشة أثر الانتداب ، وما جرّ على البلاد من ويلات البؤس والشقاء ، وما سام الجلاد أهل الوطن من الجور والاضطهاد :

والاعادي حمر النواجذ تنقض ... كسرب من الذئاب العوادي
أجهدوا النعجة الهزيلة بالحلـ ... ـب فخارت من وطأة الاجهاد
وترامت ما بين جلد وعظم ... تتلوى على يد الجلاد
أذئب الفقر مخلبيه وأودى ... بوقار الاكارم الامجاد
هل ترى غير صاخب من شقاء ... فاغر الشدق لاطم الازباد

وفي قصيدة رائعة ، يرثي الشاعر نفسه الملك فيصل رثاءً أليماً ، فهو أمنية العرب التي ذوت ، وفقدانه خطب جسيم لا يطوله النسيان :

فكأنا يا فيصل المجد بالامـ ... ـس دفنا أحلامنا والاماني
ونثرنا على ترابك إكليـ ... ـل ولاء وحسرة وحنان

إن شـر الخطوب خطب جسيم ليس يطوي في غيهب النسيان

وللشاعر أبي ريشة صرخات مدوية ، يدعو فيها الى النهوض بالبلاد ، والقضاء على مظاهر الضعف والهزيمة فيها . ويحسن ملاحظة ماتزخر به هذه الابيات من شعور صادق ، وعاطفة وطنية خالصة :

يارجال البلاد أنتم مجاري الـ ـروح فيها وعزمها المتضافر
أبلاداً ترون ام ملعباً بالبـ ـؤس والحزن والشقاوة زاخر
أيسيل النضار فيها ويشكو أهلها عاصفاً من الجوع ثائر
كم وقفتم على المنابر تشكو ن أذى الظلم فانطقي يامنابر
ليس تجدي شكوى الضعيف فتيلا ومتى رق للضعيف الجائر
فأرونا نهجاً جديداً قويماً وعليه من الثبات شعائر
فعسى يبسم الرجاء وتحيو ن تراثاً سامي الارومة طاهر ...

وفي مصر تنمو الحركة الوطنية وتتسع على يد الزعيم مصطفى كامل ، الذي كان لموقفه الوطني العنيد من المحتلين أثر في احياء الحركة التحريرية في مصر . وقد انبرى الشعراء ، في زمنه ، يهاجمون سلطة الاحتلال ، ويندون بمساوىء الحكم ...

ولما أدركت المنية هذا الزعيم الجريء ، روع المصريون بفقده باعث النهضة ، وحامل لواء الحرية ، فبكاه أهل البلاد جميعا ، ورثاه الشعراء بقصائد من أجود الشعر وأصدقه عاطفة ، ولنصغ إلى حافظ ابراهيم يقول فيه :

هنيئا لهم فليأمنوا كل صائح فقد أسكت الصوت الذي كان عاليا
ومات الذي احيا الشعور وساقه الى المجد ، فاستحيا النفوس البواليا
.. شهيد العلى لازال صوتك بيننا رنيناً كما قد كان بالأمس عاليا

يناشدنا بالله الا تفرقـــوا وكونوا رجالاً لاتسروا الاعاديا

ولنسمع الى شاعر القطرين خليل مطران يبكي زعيم المصريين ، ويسجل مآثره الباقية على مرّ الزمن وتتالي الأيام :

.. مصر التي كافحت اشدّ عداتها متصدراً لرماتهـــا مستهدفا
مصر التي سقت الجيوش مناكبا ومنى لتكفيها المغير المجحفـــا
عرفت أهليهـا حقيقة قـــدرهم وكفاهم من قـدرهم أن يعرفا

ثم يرأس سعد زغلول باشا الحركة الاستقلالية ، وينفى مع رفاقه الى جزيرة سيشل ، وعند عودته يستقبله المصريون استقبال الابطال ، وينشد الشعراء في الترحيب به اروع الشعر . وهذه قصيدة لخليل مطران نظمها يوم عـــودة الزعيم الكبير :

خفقت لطلعة وجهك الاعـلام ومشت تحيط بركبك الاعـلام
.. عامان مرا في الغياب وعندمن يشتاق ، أقصر ساعة أعـــوام
اليوم لاإغراق في قـول امرئ هز المقطم وانتشى الاهرام
... هذا جزاء المخلصين وهكذا تثني على ابطالها الأقـــوام
منجي البلاد ومستعيد حقوقهـا ماذا يفي عن حقه الاعظـــام
حسب المفاخر أن غدوت ملاذها ومعاذها المأمـــول حين تضام

وقـد اصبح سعد ، بعد مماته ، نبعاً دفاقاً يغترف منه الشعراء مادة حية لشعرهم الوطني ، يلقونه في الحفلات ، أو ينظمونه استجابة لمحبتهم القائد الوطني ، تلك العاطفة الصادقة التي تستأثر بأفئدتهم وتزخر بها نفوسهم ..

وهذه نماذج يسيرة من الشعر السياسي الذي قيل فيما عرض لسوريا ومصر ،

اوفي بعض ما عرض لهذين البلدين العربيين الشقيقين من احداث ، او ما انتابها من مشكلات ، وعصف بها من افراح وأتراح .

أما فلسطين فقد ابتلاها الاستعمار بنكبتين : الانتداب والصهيونية . وقد اعطى وزير الخارجية البريطانية وعداً لزعماء الصهاينة بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود . وقد كان هـذا العهد ، تأخذه على نفسها حكومة « صاحب الجلالة » ، اثناء الحرب العامة ، مبعث ألم حز في نفوس العرب ، وخيبة لما عقدوا من آمال على قيامهم بالثورة ووقوفهم في الحرب بجانب الحلفاء .

وقد رجّع الادب العربي صدى الاستياء البالغ الذي عصف بالنفوس ، والنقمة الصاخبة التي استعرت في القلوب . وها ان الشاعر القروي يحمل على ذلك الوعد الغاشم ، مفنداً ، مستنكراً ومتوعداً :

الحق منك ومن وعودك أكبر ... فاحسب حساب الحق يامتجبر
تعد الوعود وتقتضي انجازهـا ... مهج العباد ، خسئت يا مستعمر
لو كنت من اهل المكارم لم تكن ... من جيب غيرك محسناً ياد بلفر »
عـــد من تشاء بما تشاء فانما ... دعواك خاسرة ووعدك أخسر
فلقد نفوز ونحن أضعف أمـة ... وتؤوب مغلوباً وانت الاقدر

ولما وجد العرب ان السلطة البريطانية المنتدبة آخذة في تنفيذ سياسة ترمي الى سلخ البلاد من ايدي اصحابها ، لتسلمها الى الصهاينة ، اندفعوا يقاومون هذه الخطط الاستعمارية ، ويناهضون الانتداب البريطاني ، للذود عن حريتهم واستقلالهم ، وصيانة أرضهم وتراثهم التاريخي .

ولم تسكن الاضطرابات في فلسطين طيلة عهد الانتداب ، وكان أهمها وأشدها

ثورة ١٩٣٦ ، التي اشترك فيها جند وقادة من كافة الاقطار العربية ، تطوعوا لمساعدة عرب فلسطين ..

وقد رسم الشعراء ، في كثير من الصدق والوضوح ، صورة ذلك النزاع الدامي بين الحرية والحق ، قوة الشعب ، وبين الاستعباد والباطل ، قوة المغتصب ..

ولنسمع الشاعر العراقي مهدي الجواهري يصف فلسطين الدامية :

... فيافلسطين إن نعدمك زاهرة ... فلست أول حق غيلة هضما
سور من الوحدة الصماء راعهم ... فاستحدثوا ثغرة جوفاء فانثلما
ثار الشباب ومن مثل الشباب إذا ... ربع الحمى وشواظ الغيرة احتدما
يأبى دم عربي في عروقهم ... أن يصبح العربي الحر متهضما

ويصف بشارة الخوري ، الشاعر اللبناني جهاد العرب بقوله :

ياجهاداً صفق المجد له ... لبس الغار عليه الارجوانا
شرف باهت فلسطين به ... وبناء بالمعالي لايدانى
إن جرحا سال من جبهتنا ... لثمته بخشوع شفتانا

ويرسم الشاعر أبو ريشة لوحة ، غاية في الابداع الفني ، تمثل ذلك الصراع القائم بين العرب الذين قيدهم المستعمر واشتد في اضطهادهم ، وبين الصهاينة المشردين الذين خصهم بعطفه ومساعدته :

قف على تربة المسيح وشاهد ... مصرع المجد فوق طهر الرمال
عاث فيها المشردون رضيعو ... لبن الذل في مهود الضلال
والرجال الاباة رغم إباها ... تخفض الهام ، ياغرام الرجال ؟

نكد الدهر أن ينال جبان ... من جسور مشدد الاغـــلال
واذا النـاب والمخـالب طاحت ... لطم الذئب جبهـة الرئبـال

ومأساة فلسطين كانت نبعاً عبّ منه الشعراء ماتيسر لهم ، وستبقى هذه النكبة التي تضافرت قوى الطغيان في العالم على انزالها بالعرب في فترة تحررهم الوطني مصدراً لأدبٍ حي ، يبث في الشعب روح الوطنيـة وكره الاجنبي المستعمر ، ويعلمه أن الحرية لاتنال إلا بالتعاون والاخلاص والتضحية ...

اما العراق فقد فرض عليه الانتداب البريطاني فرضاً. وقدضرب المستعمر بامانيّ البلاد ورغبات سكانها عرض الحائط ، فرفض الوطنيون الخضوع لمشيئة المغتصبين . ولما تبين لهم غدر المستعمر ونكثه الوعود ، رأوا تحكيم القوة ، واشعال نار الثورة حرصا على حريتهم وصيانة لاستقلالهم .

قال الشاعر محمد رضا الشبيبي معبراً عن رأي الوطنيين :

بني يعرب لاتأمنوا للعدى مكرا ... خذوا حذركم منهم فقدأخذوا الحذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيـدة ... ويبغون ان حانت بكم فرصـة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم وتـذكروا ... أضاليلهم في الهند والكذب في مصر
ومن مات دون الحق والحق واضح ... إذا لم ينل فخراً فقـد ربح العـذرا

وتندلع الثورة في القطر العراقي ، وتفوز في الاستيلاء على الريف باجمعه حتى اضطر الانكليز الى الالتجاء في بعض المدن . ولنسمع الجواهري يصف الثورة بقوله :

ويوم نضت فيه الخزل غطارف ... يصان الحمى فيهم وتحمى المطامع
لقد عظموا قدراً وبطشاً وانمـا ... على قدر اهليهـا تكون الوقائع

وما ضرهم نبو السيوف وعندهم عزائم من قبل السيوف قواطع

واجبر المستعمرون على مهادنة الثوار ومفاوضتهم ، فانتهت الامور الى تتويج الملك فيصل ملكاً على العراق في ٢٣ آب عام ١٩٢١ . وكان لهذا الحادث الذي تفاءل به العراقيون ، ورجوا منه الخير والنفع ، أثر في الشعر . يقول الزهاوي من قصيدة :

عرش العراق ضمان للعراق وفي تأييده الشعب والاحزاب تشترك
الناس في فرح ان جئت ترأسهم من بعدما قد بكوا من يأسهم ضحكوا

ولكن الاستقلال قد انتقص منه ، والسيادة لم تكن كاملة ، إذ ان الانكليز اخذوا يتدخلون في شؤون الحكم والارادة ، فيعرقلون كافة المشاريع التي تسيء الى مصالحهم المادية والسياسية ، فبقيت البلاد تتخبط في اقتصاد عديم النفع ، وتنظيم اجتماعي جامد ، ووضع فكري وعملي لا سبيل له الى التطور والتقدم .

ولهذه الاسباب ، ظل التشاؤم يصبغ الادب ، وبقي القلق والتذمر يسودان نفوس الشعراء ، وظل ارباب القلم المخلصين للشعب وللحقيقة ، ناقمين على الاوضاع السيئة والنظم البالية .

ولعل اكثر شعراء العراق ، معارضة للحكم القائم آنذاك ، معروف الرصافي الذي كان فيما سبق ، من ألد اعداء حكم العثمانيين الاستبدادي . ولكن ظنه قد خاب بالتغير الذي طرأ على العراق والبلاد العربية : التجزئة بدل الوحدة ، والاحتلال عوضاً عن الاستقلال . وربما آثر الرصافي الرجعة الى الجامعة الاسلامية في خير وابقى من الخضوع لسيطرة الانكليز ... ولذا راح هذا الشاعر يفند مساوىء

الحكم في العراق ، ويظهر تناقضه، ويفضح اضراره بمصالح الشعب ، ولنسمعه يقول في احدى قصائده :

من أين يرجى للعراق تقـــدم ... وسبيل ممتلكيـــه غير سبيله
لا خـــير في وطن يكون عنـــد جبانه والمال عند بخيله
والرأي عنـد طريده والعلم عنـــد غريبه والحكم عند دخيله

وفي قصيدته التي نظمها عام ١٩٢٢ « تجاه الريحاني » يذكر فيها تنافر رجال الحكم، وبعد الشقة بينهم وبين الشعب ، يقول :

واذا وقفت بدارس من مجـده ... فكوقفة الباكين بين طلولـــه
فلقد عفا المجد القديم بأرضـه ... وعليه جر الدهر ذيل خمـوله
تجد الرجال قلوبها شتى الهوى ... مَدَّ الشقاق بها حبالة غـــوله
متناكرين لدى الخطوب تناكراً ... يعيـــا لسان الشعر عن تمثيله
فالجـار ليس بآمنٍ من جاره ... والخـــل ليس بواثق بخليله
من أين يرجى للعراق تقدم ... وسبيل ممتلكيه غير سبيله

وعندما يعرض الرصافي لحكومة « تعاونية » يسلقها بألسنة حداد ، ويعرّض باعمالها التي تتنافى ومصلحة الأمة ، ويشهّر بأعوان الاجانب الذين يستأثرون بمناصب الحكم ، لايلتفتون لاصلاح الاحوال ، او خدمة الشعب .

وبين أيدينا قصيدته « حكومة الانتداب » تطلعنا على لون جديد من الشعر السياسي الذي لايعرف ليناً ولا هوادة :

انا بالحكومة والسياسـة أعرف ... ألامُ في تفنيـدهـــا واعنف
سأقول فيهـا ماأقول ولم أخف ... من أن يقولوا شاعر متطرف

هذي حكومتنا وكل وعودها ... كذب وكل صنيعها متكلف
غشت مظاهرها وموّه وجهها ... فجميع مافيها بهارج زيف
وجهان فيها باطن متستر ... للاجنبي وظاهر متكشف
والباطن المستور فيه تحكم ... والظاهر المكشوف فيه تصلف

ثم ينتقل ، في هذه القصيدة عينها الى تعديد مساوئ الحكومة وذكر نواقصها وتبيان استغلالها اموال الشعب ، يقول :

افهكذا تبقى الحكومة عندنا ... كلما تموه للورى وتزخرف
كثرت دوائرها وقل فعالها ... كالطبل يكبر وهو خال أجوف
كم سادنا منها ومن وزرائها ... عمل بمنفعة المواطن مجحف
تجبي ضرائبها الثقال وانما ... في غير منفعة الرعية تصرف

وبعد ذلك ينتهي الرصافي الى الوعيد والتهديد ، وينذر رجال الحكم بشر مستطير ، لأن الشعب لا يرضى بالظلم ، ولا يسكن على الجور ، يقول :

ان دام هذا في البلاد فانه ... بدوامه لسيوفنا مسترعف
لابد من يوم يطول عليكم ... فيه الحساب كما يطول الموقف
فهنالكم لايغني شيئاً عنكم ... لسن تقول ولا عيون تذرف
الشعب في جزع فلا تستبعدوا ... يوما تثور به البلاد وترجف
أيذل قوم ناهضون وعندهم ... شرف يعزز جانبيه المرهف

والرصافي شاعر غير هياب ولاوجل ، يرسل النقد جارحا مؤلما ، ويبسط الحرية مجردة عارية ، لايثنيه عن عزمه تهديد ولا وعيد ، ونثبت له هنا ابياتا من قصيدة « الحرية في سياسة المستعمرين » تدل على نزوعه الى الحرية ، وتهكمه على المنتقصين منها ، والمبغضين لها :

ياقـــوم لاتتكلموا إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا مافاز إلا النّوم
.. ودعوا التفهم جانبـــاً فالخـــير الا تفهمـوا
.. اما السياسـة فاتركوا ابـــداً والا تنـدموا
والعـــدل لا تتوسموا والظـــلم لا تتجهموا
لا يستحق كرامـــة الا الاصم الابـــكم
ودعـوا السعـادة انمـا هي في الحيـــاة توهم
واذا ظلمتم فاشكروا واذا لطمتم فـابسموا
.. ان قيـــل إن بلادكم ياقـوم سوف تقسم
فتحمـدوا وتشكروا وترنحوا وترنمـوا !

وعندما نشرت المعاهدة العراقية ـ الانكليزية ، لم ترق للرصافي لما تحتوي عليه من تقييد لسلطة البلاد ، وحدّ من حرية الحكومة الوطنية . وقد نظم قصيدة ينتقد بهـا تلك المعاهدة ، ويعجب ان يهادن الذئب الحمـل ، ويرى فيها تثبيتاً للسيطرة الاجنبية في القطر العراقي ، يقول :

نشروا المعاهدة التي في طيها قيد يعض بأرجل الآمال
والعهد بين الانكليز وبيننـا كالعهد بين الشاة والرئبال
من ذا رأى ذئب الذئاب مصافحاً بتودد حملاً من الاحمـال
لكنهم خافوا انفكاك قيودنا فاستوثقوا منهن بالاقفـال

وللرصافي قصائد وافرة العدد ، لاذعة النقد ، ولا غرابة وهو القائل في « آل السلطنة » ويعني بهم جميع الحكام المتسلطين :

تزكوا السعي والتكسب في الدنـ ـيا وعاشوا على الرعية عالة

يأكلون اللباب من كد قوم أعوزتهم سخينة من نخالـه

فكأن الانام يشقون كداً كي تنـال النعيم تلك السلاله

..نعموا في غضارة الملك عيشاً وحملنا من دونهم أثقاله ...

والقصيدة كلها تجري هذا المجرى من التهجم الجريء على ذوي السلطان والعرض الفاضح لمساوئهم ، والشاعر انما يبتغي من كل ذلك التنبيه الى حق الشعب في طلب الحرية وابتغاء العدالة والسعادة .

واعتقادي الراسخ ، بعدما تقدم ، أن الدعوة الى نزول الشاعر ، والاديب عامة ، الى معترك الحياة الوطنية ، أي الى ارتباطه بالواقع وسعيه لاستخدام نتاجه الفكري لخير الامة ، هي دعوة حق لايصح اغفالهـا . فقد اثبت الشعر الوطني في العراق قيمة الادب ودوره الفعال في توجيه الشعب وانارة السبيل امامه الى الحرية والاستقلال والرقي . . .

ادب الحرية

رأينا فيما سبق الى تطور الحياة السياسية في البلاد العربية ، وما رافق ذلك التطور من الادب . وقد مرّ معنا ان التيارات الادبية كانت مساوقة للاتجاهات السياسية ، ومعبرة عن آراء الفئات الاجتماعية المختلفة .

ولست أود متابعة الحديث عن ادب الكفاح ، قبل ان أشير الى شاعر

كبير ، كان شعره سيفاً مصلتاً ضد الاستبداد ، ومعولاً هداماً لعروش الظلم، الا وهو شاعر القطرين خليل مطران .

عاش الخليل في العهد الحميدي الذي نشر ظله القاتم على البلاد العربية ، وشهد زمن الاحتلال في مصر، وعاصر الحرب العالمية الأولى والغزوات الاستعمارية ، كما عاصر النهضة العربية عامة، والمصرية خاصة . وقد كان في شتى الظروف، من دعاة الحرية السابقين ، وحماة الوطن المخلصين ، وانصار الشعب المنادين بحقه ، الداعين الى انصافه والأخذ بيده في طريق المجد والحرية . ولعل خير ما يلخص عقيدته وعمله، قول الاستاذ نجيب جمال الدين في مؤلفه القيم «مطران شاعر العصر» عنه : « ان النابغة في الامة العربية ، يجب عليه ان يعصف بالظلم عصفاً ، وان يقارع الطغيان مقارعة ، وأن يهز الواقع بقامه هزاً . عليه ان يزين النضال والاخلاق النضالية في عيون ابناء الأمة العربية الكبيرة ، لينهضوا مرة أخرى لتأدية رسالة الخير والحق والجمال .. وهكذا كانت حرية خليل مطران . . »

وقد كان مطران زاخر النفس بالعاطفة الوطنية الصادقة ، المتصفة بالوعي المستنيرة بالعلم ، ولنرَ الى هذه العاطفة الجياشة في قصيدته « تباشير » :

ومـــلاك شيمتنا الوفاء فانه لسعادة الاقوام خير مـلاك
آمالنـــا آلامنا أرواحنـــا أشباحنا يوم الفـــداء فداك
بالعلم ننشر ما انطوى من مجدنا وبه نزكي في الورى ذكراك

هذه ، لعمري ، الوطنية الصادقة ، دعامتهـا الفهم والرأي ، وقوامها العلم والعرفان ، وعمـــادها الوفاء الذي يبتغي سعادة كافة الشعوب . انها عاطفـة

سمحة غذتها الفطرة وهذبتها الحضارة ، فخلصت من الضيق والمقم ، وائتلف بها الحس الوطني والشعور الانساني .

وقد كان مطران عليماً بأدواء الشرق العربي ،عارفاً بعلاته ، سواءما اتصل منها بالاجنبي الغاصب ، أو ماتجم عن مستثمر من أهل البلاد . أما جهل الشعب فهو ركيزة للمتسلط، يسهل له التحكم والاستعلاء ، يقول في « أقوال صريحة »:

بني الشرق فلنفقه حقيقة حالنا ... لننجو أو يقضي القضاء المحتم
يصول علينا الجهل غير مدافع ... بجيش له في كل ربع مخيم
.. أفي ظنكم أن المحاق يزيله ... عزيف بآلات وغوغاء تنأم ؟
.. الى أي حين في قلى وتخاذل ... وشمل شتيت والعدى تتحكم

ثم يلتفت الى معالجة الاستعمار بشكل واقعي حسي ، فيقول:

.. نحارب هذا الغرب فكراً ونية ... ويضحك منا والحصافة تلطم
من الغرب مانكسى لنستر عرينا ... ومنه شراب نصطفيه ومطعم
ومنه معدات البلاد التي بها ... ندافع عنا منه من يتقحم !
إذا ما شقينا في معاداة بعضه ... فباقيه يجبي المال منا وينعم

ثم يشير الى الاقطاعية التي تجعل البلاد فريسة للاجنبي المستعمر ، لانها تضعف البلاد ، وتستثمر السواد الاعظم من الشعب ، وتنهب اتعابه وتفرض عليه المذلة والسخرة :

.. قرانا قرى التجار منهم واهلها ... على كل حرث للمرابين قوّم
نقائص فينا لم اعدد جسامها ... ولكنني عددت ما هو أجسم

ومطران ، أبداً في طليعة الاحرار ، يصفق للتقدم إن فاز على الرجعية ،

ويطرب للديموقراطية إن ظفرت بالاستبداد. وقد ساهم في زمنه، في تأييد الذين ناضلوا في سبيل حكم الشعب، أقصد الاتحاديين الاتراك الذين حصلوا، بعد جهد عنيف على دستور يضمن الحريات ويكفل حقوق الناس.

ولنسمعه يقول في «الدستور العثماني» محبذاً، مدافعاً:

وكل شعب كاسر قيوده ... بالحق، ما اعتدى ولا تعدى
قد زعموا الشورى لنا مفسدة ... على صلاحها، أقالوا جدا؟
دعاة الاستئثار إن لم تنتهوا ... وترعووا ساء المصير جدا
في كل شعب كثرت اجناسه ... لاشيء كالقسط يصون العقدا

وهو شغوف بالحكم الديموقراطي، مؤثر لحق الشعب في ادارة شؤونه، وها انه يخاطب السلطان عبدالحميد عند نشره الدستور:

ما شارك الملك أمّه ... في الحكم ألا أتمّه
بحكمة ورويّه
شاور فذلك فرضٌ ... مافي المشورة غض
من قدر نفس أبيّه

ولما نال الاحرار العثمانيون الدستور، هزت الشاعر ارتعاشة فرح محموم، فأرسل تحية هي أروع ماجادت به قريحة شاعر:

حييتِ ياحريه ... يا أخت شمس البريه
حييت ياحريه
أنت النعيم وأحلى ... أنت الحياة وأعلى
للخلق ياحريه

وفي هـذه القصيدة تـبرز نزعته التقدميـة بوضوح ، فهو معجب بالنساء المناضلات اللواتي شاركن في بعث الوطن ، والذود عن الحرية . ونظرته الى المرأة مشبعة بالثقة والاكبار :

حسناء ذات ابتسـام هتـاك ستر الظـلام
لحاظها دريه
تسـير سـير الملائك على فخـاخ المهـالك
بخطرة ملكيه
تضم في الصدر سرا يصبح الملك جمرا
إن تبدُ منه شظيه
.. ياغادة الـترك حمـدا أنت المثـال المفـدى
للحسن والاريحيه
أبطلت رمي النساء بالغـدر والافشاء
وكنت أنت الوفيه

ومطران ساخط على الاستعمار ، ناقـم على ما يبديه من ظلم وارهـاب ، منكر عليه طمعه الاسود ، واعتداءه على الشعوب الآمنة ايرميها في وهدة البؤس والشقاء . وهو يعلم ان الاستعمار انما يستهدف اغتصاب حقوق الشعب وانتهاب خيراته وثمرات كدحه . يقول في فتاة بويرية سار أبوها لمحاربة الانكليز :

واستمعت في الغداة قيلا إن اباها للحرب سارْ

وان قوماً جاؤوا ليفنوا أمتها بغية النضار
لا يرحمون الصغار منهم ولا يرقون للكبار
ولا يراعون حق حر ولا يصونون عهد جار

ويصف حال سكان طرابلس الغرب العرب، حين اعتدى عليهم الطليان وصفاً رائعاً، وينفض يديه عن لوحات فنية رائعة، ولكنها قاتمة كئيبة لانها تصور الاستعمار في ابشع صوره :

وارحمتاه لقوم فارقوا النعما من غير ذنب لهم واستقبلوا النقما
ولاة ارزاقهم ولوا فما رجعوا وغادروهم عراة جوعا هضما
شيوخهم وعذاراهم وصبيتهم ذاقوا جميعا فطام القهر واليتما
فلو ترقبهم مستطلع لرأى أشلاء حزن مشظاة بكل حمى
مكدسين جماعات على علل مستوطنين بيوتا تشبه الرجما

ثم يتابع وصف اهل البلاد الذين فقدوا رجالهم ومعيليهم وحماتهم في مدافعة العدو الغاشم، والمستعمر الجاني، وصفا مؤثرا :

مستضعفين ثكالى لا قرار لهم ولا يلاقون إلا البؤس والسقما
ماحال أم لها طفل بجانبها غير المدامع في يوميه ما طعما
ورضع وجدوا الاثداء لاذعة كالجمر فانفطموا واستنكروا الحلما
وغانيات أباحتها الخطوب فلو لم تعصم النفس ساء الفقر معتصما
وعاجزين إذا الحاجات ثرن بهم عاقت قيود الليالي منهم الهمما

أشباه موتى سوى رؤيا تروعهم ... ورائعات الرؤى لاتبعث الرمما
.. اولئكم أهل من جادوا بأنفسهم ... وخلفوهم على أوطانهم ذمما

لما سمع أن شاعراً قد أبرز اجرام الاستعمار مثلما فعل مطران في هذه القصيدة... الحرب المروعة المخيفة يثيرها المستعمرون تدفعهم أطماعهم التي لا ترتوي من جمع المال وسفك الدماء ! لقد ارهقوا البشرية بما أثاروا من مجازر ، ولم يكفوا عن الدعوة الى الحرب ، وهاهم اليوم يعملون لاشعال نارها ليلقوا بالبشر في أتون لا يشبع لهيبها من اجساد البشر ...

ويهزه اعتداء الطليان ، مسوخ الاستعمار على البلد العربي الابي، طرابلس الغرب ، فيهب هبة الفارس المغوار لينصر الحق بشعره ، يستثير به الهمم ، ويشد العزائم ويحيي الآمال ، يقول في قصيدة :

.. نحن الذين أبحنا الراصدين بنا ... حمى به كانت العقبان تعتصم
لولا تغافلنا لولا تخاذلنا ... لولا تواكلنا ،تالله ما اقتحموا
لم أبغ من ذكرها ان تيأسوا اجزعاً ... خير من اليأس ان يستقدم العدم
يأس الجماعات داء إن تملكها ... فهو التحلل يتلوه الردى العمم
نعم لتنصر على الباغين أمتنا ... لابالدعاء ولكن نصرها بكم

ثم يتابع هذه القصيدة الرائعة موضحاً أن الحرية لاتصان إلا بالدم والمال، وان المستعمرين لن يفيدوا من غزوتهم سوى الفشل والعار ، يقول :

.. الشعب يحيا بأن يفدى ومطعمه ... مال البنين مزكى والشراب دم
لاشعب يقوى على شعب فيهلكه ... فان ترَ القوم صرعى فالجناة هُمُ

فليهلكه

لن يملكوا نفس حر في طرابلس ولن يضيعوا سوى الاشلاء إن حكموا
ولن يكون لهم من كسب غزوتهم الا الشقـــاء ، وعار خالد يصم

ومطران يدرك أن الاستقلال لاينال إلا بالقوة ، وان الحق لاتحميه سوى عزائم شداد ، وهمم متوثبة ، ونفوس وافرة البذل والتضحية :

خوضوا الغمار لتظفروا بمرادكم لا فوز إلا بعد خوض غمـــار
ماشاء سعـد الدار أن تشقوا له فاشقوا له ماشاء سعـــد الدار

وقد حدث لمطران ان حاولت السلطة الحاكمـة إخفات صوته ، وكبت دعوته ، مع سواه من حماة الحرية ، فطلع على الحكومة الجائرة بهذه الابيات :

شردوا أخيـارها بحراً وبراً واقتـلوا أحرارها حراً فحراً
انما الصالح يبقى صالحـــاً آخر الدهر ويبقى الشرشرا
كسروا الاقلام هل تكسيرها يمنع الأيدي ان تنقش صخرا ؟
قطعوا الأيدي هل تقطيعهـا يمنع الأعـين ان تنظر شزرا
أطفئوا الاعين هل اطفاؤها يمنع الانفاس أن تنظر شزرا
أخمدوا الانفاس ، هذا جهدكم وبه منجاتنا منكم ... فشكرا

واعتقد أن مطران قد أنهى حملته هذه بـ « فصبراً » ، ولكن الديوان شاء ان يثبتها بالشكر الذي يتنافى مع روح القصيدة الثورية .

ولما شاعت هذه القصيدة تهدده رئيس الحكومـة بالنفي فأجاب مطران بما يجيب الحر الكريم الذي يأبى التهديد ويسخر بالوعيد :

انـا لا أخاف ولا ارجي فرسي مؤهبـة وسرجي
فاذا نبـــا بي متن بر فالمطيـــة بطن لجّ

لا قول غير الحـــق لي　　قول وهذا النهج نهجي
الوعد والايعاد ما كانـا　　لديّ طريـق فلـــج

فلم يكن مطران إذن صناجة الحرية فحسب ، بل كان بطلاً من أبطالها يعادي من أجلها ذوي السلطان ، ويقتحم الصعاب ، ويستعذب مرّ الشراب !

وقد كان شاعر العصر — كما يدعوه بحق الاستاذ جمال الدين — يتعشق الاصلاح ، ويهفو الى الرقي ، ويدعو اليهما بحماس وغيرة . ولنرَ الى هذه النزعة الكفاحية التفاؤلية في مخاطبته اعضاء الجمعية التأسيسية بمصر :

.. أثبتوا أن في البلاد رجالا　　حققـوا بالكنانة الآمالا
رجحوا العقل واستخفوا الملا　　إفسحوا للاكفاء منكم مجالا

وأهيبوا بهم : أماماً أماما

.. هو يوم ان تعدلوا سرّ جدا　　فاجعلوه لغابر الظلم حدا
واجعلوه لمبدأ العدل عهدا　　عدل يوم يبدل النحس سعدا

عدل يوم يعدل الأياما

ينظر الشرق من قصي النواحي　　كيف تستقبلون عصر الفلاح
فأروه منكم مكان الصلاح　　وأروه بوارق الاصـــلاح

مالئات آفاق مصر ابتساما

قال الدكتور هيكل يصف الخليل : « .. طالما جلست اليه وتحدثنا كثيراً ، فكنت اشعر دائماً انه ذلك الشاعر الذي يريد عالماً أفضل ، ولا يطمئن الى

حاضرنا في هذه الحياة الدنيا . . نرى هذا النحيل الجسم ظاهره كله الوداعة ، وباطنه كله الثورة » .

وقد وقف مطران ازاء الحوادث السياسية والقومية التي زخر بها عصره ، وقفة الرجـــل الوطني الحر ؛ الذي ينصر العدل على الظلم ، والاستقلال على الاستعمار ، ويهتف للعدل ضد الظلم ، وللحرية ضد الاستبداد . ويسلك الخليل الى هذه الغاية طريقاً قويمة آناً ، وطريقاً متعرجة أناً آخر ، كأنه يخشى ان ينازل العدو في أرض « مكشوفـة » . ولذلك فقد عمد مطران الى التاريـخ يستمد منه قصصاً وحوادث ، ليرويها في شعره بعد أن يضفي عليهـا من فنه الرفيـع ، ما يعيدها حيّة قوية ... وبعد لم يكن الشاعر من هواة الآثار ، انما أراد أن يعيد الى الاذهان تلك الحكايات المنسية ، رغبة في بث نقمته على الطغيان وحقده على الجور ، في عصره بالذات ... وهـكذا كانت قصائده التاريخية : « الاهرام » ، و « في ظل تمثال رعمسيس » و « السور الـكبير في الصين » ومقتل « بزر جمهر » و « فنجان قهوة » و « نيرون » ، هذه الروائع التي أغنت الشعر العربي بفكرها الحر المتوثب ، وعاطفتها المتقدة ، واسلوبها المتقن وعرضها البديع ، إنها طليعة شعر الملاحم عند العرب .

فاذا تصفحنا احداهـا ، قصيدة « الاهرام » مثلاً ، وهي أصغرها حجماً وأغناها معنى ، لكشفنا الستار عن لوحة ، آية في الاتقان والوضوح والدقة ، تمثل ابرع تمثيل طغيان الفراعنة المتألهين على شعبهم ، يسخرونه في كل مايحقق لهم السيطرة والترف ، ويرضي أحلامهم الطائشة وأطماعهم التي لاترتوي !..

شاد فأعلى وبنى فوطـدا لا للعلى ولا له بل للعدى

مستعبد أمته في يومه مستعبد بنيه للعادي غدا

هكذا ينفذ مطران الى هذه الحقيقة: ان شعباً قد استبد به حكامه لا يستطيع أن يكون حراً ، بل يقع فريسة في قبضة اعدائه ، لانه لم يتذوق طعم الحرية كي يحرص عليها ويذود عنها ، وقديماً قال الشاعر : ما الجرح بميت إيلام !

ثم يأخذ الشاعر العبقري في ابداع الصورة ، فيرسم اشكالها وخطوطها وظلالها ، حتى لتدب الحياة في اجزائها ، وتنتشر الحركة في اطرافها . انه ينقل القاريء عبر الزمن ، الى عهد الفراعنة ، فيريه الرجال المسخرين ، « عد الرمال » ، قد احتشدوا من كل صوب وناحية ، « صفر الوجوه » « محنية ظهورهم » « خرس الخطى » يجتمعون حيناً ويتفرقون حيناً آخر ، وهم جادون في تشييد ذلك البناء الهائل « الاهرام » . ولا تعجب لأمر هؤلاء الكادحين ، يشقون ويتعبون ، ويبذلون الجهد والعرق ، ويفنون الجسد والحياة ، فانهم انما يبنون « قبراً » لفرعون !:

اني أرى عدّ الرمال هنا خلائقاً تكثر أن تعددا
صفر الوجوه ، نادياً جباههم كالكلأ اليابس يعلوه الندى
محنية ظهورهم خرس الخطى كالنمل دب مستكيناً مخلدا
مجتمعين أبحراً ، منفرعين — من أنهراً ، منحدرين ، صعداً
أكل هذي الأنفس الهلكى غداً تبني لفان جدثاً مخلدا !

ولكن هيهات أن يخلد الطغيان ، فان الشعب إن خضع يوماً ، فلا يخضع كل يوم .. ألم يشهد العصر الحديث ، عصر مطران وعصرنا ، عروشاً تدك ،

وتيجاناً تحطم ، وملوكاً تهوي ، وجماهير تزحف إلى الامام .. لتحقق السيادة والعدل والحرية :

يأيها الموتى ألم يسمعكم ... صوت المنادي صادعاً مردداً
قوموا انظروا السوقة فيما حولكم ... تدوس هامات الملوك همّداً

ثم ينبري مطران الى مناقشة هؤلاء الطغاة الحساب ، فماذا أجدت تلك « الاهرام » ؟ وكيف يبرىء فرعون نفسه عن إجرامه ضد الجموع الغفيرة التي أهلكها ارضاءً لغروره ، ثم ألم يكن تعسفه الشديد وحكمه الجائر سبباً في إذلال الشعب وإضعاف روح الحرية فيه على مدى التاريخ ، حتى أضحى اليوم ، تحت النير الاستعماري الرهيب ! :

قوموا انظروا العادي في أمصاركم ... يحكم فيها مستبداً أيدا
قوموا انظروا اجسادكم معروضة ... في مشهد لمن يروم المشهدا
بعث به يسألكم حساب ما ... قدمتم ، من راح منا واغتدى
لم يغنكم منه البناء عالياً ... والأرض نهباً والملوك أعبدا

ويختتم مطران قصيدته برأي يبديه ، وخطة يرسمها ، فيدعو الى الهدى ، ويحبذ نفع الناس ، لأن العمل الصالح يخلّف جميل الذكر ، وقد ورد في آية كريمة:.. «واما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » :

وكان يغنيكم جميل الذكر لو ... خفضتم اللحد وشدتم بالهدى
أخطأ من توهم القبرَ له ... حرزاً يقيه بالردى من الردى

إني لاحار فيما أعجب أبالمعنى الحي الواعي ، أم بالتصوير المبدع الصادق ،

أم بالتعبير المختار القوي ،فكل ذلك قد اجتمع في هذه القصيدة ، بل في جميع شعر مطران .

تبقى مسألة أخيرة ، فهل كان العرض التاريخي ، في شعر الخليل غاية ؟ لايخامرني شك في ان الشاعر لم يقصد سرد قصص الاقدمين تسلية وعبثاً ، وانما عاش في زمن عصف به الظلم وساد الاستبداد ، فأراد الشاعر أن يندد بالحكم الجائر وينبه الى الخطر الماثل ،فعرّض في شعره بالطغاة الأقدمين ورذل اعمالهم، وهو انما يقصد طغاة زمانه !

وينكر بعض الادباء على مطران موقفه من الشعب ، إذ يحمّله تبعة مايسام من عنت وارهاق ، حتى ليكاد يعذر الطغاة :

كل قوم خالفو نيرونهم قيصر قيل له أم قيل كسرى

غير اني أعتقد أن موقفه هذا يبرره حقد الشاعر على المستبدين ونقمته على الظالمين ، فيهاجمهم بلا رفق ولا لين ، بل ويهاجم الشعب المستكين الذي خضع لهم ومكن لهم في الارض !

ويؤخذ على مطران إكثاره من شعر المناسبات ، فديوانه يزخر بالمدائح والمراثي ، يسوقها في كل أمير خطير ، أو رئيس كبير ، ولا أظن أن سلامة نيته ، ودماثة خلقه ، تشفع له عن هذا الطرف الرخيص من شعره .

ولكن الخليل ، في زعمي ، قد سبق جميع أدبائنا الى تفهم رسالة الاديب الوطنية ، وكان المشرع والمنفذ في آن واحد . يقول في مطلع قصيدته :« حرب غير عادلة ولا متعادلة » :

فيمَ احتباسك للقلمْ والارض قد خضبت بدمْ

سـدد قويم سنانه في صـدر من لم يستقم
نبّه بـه أمم الـزوال فعـلـه يحيي الرمم
... قـل يافتى الشعراء قل ابتـك أم عصت الهمم

وهو بعد هذا كله ، مؤمن بالتقدم الانساني، واثق من إدراك البشر حالاً ارقى وحياة اسمى إذا ما اتخذوا الكفاح سبيلاً الى بناء ذلك الغد المشرق :

شيدوا تاريخكم من نقض ما شاده في أزل الدهر الطغاة

ويجمل القول ان خليل مطران قد رقي بالشعر من البداوة الى الحضارة ، ومن الضيق الى الاتساع ، ونقله من السطحية الى العمق ، ومن الجمود الى الحركة ؛ ووضع الادب في خدمة الشعب ضد الحكام الطامعين ، وسخره لنشر مبادىء الخير والحق والنور .

لقد أفاد منه جيلنا، وستفيد منه الاجيال العربية المقبلة، وحسبه فخراً الا ينطوي على مدى الاجيال أنه من اصدقاء الشعب المخلصين وأنصار الحرية الاخيار .

الادب تعبير كامل

عرضنا سابقاً تطور البلاد العربية السياسي ، منذ فجر النهضة حتى الحرب العالمية الثانية ، وما رافق هذا التطور من أدب وطني سياسي كان صدى للحياة السياسية ، وحافزاً للكفاح الوطني .

وكانت الحرب الاخيرة ، بداية عهد جديد زاخر بالتقلبات والاحداث ، كان له في حياة العرب العامة ، وطريقة تفكيرهم واتجاه نشاطهم أثر كبير ، وهزهم بمحاسنه ومساوئه ، حتى الاعماق !

فان كفاح الشعب السوري ضد الانتداب قد أدى الى جلاء الافرنسيين عن سوريا ولبنان ، هذين البلدين العربيين ، فأصبحتا جمهوريتين حرتين مستقلتين ، لاشيء يقيد سلطتها او ينتقص من حريتها . وتفتحت أمام الشعبين، السوري واللبناني ، فرصة التقدم والتطور ، وأتيح لهما الانطلاق في طريق التقدم والازدهار والرقي . وقد خطت سوريا ، بلدنا الاغر ، بعض الخطى في حياتها الاقتصادية والفكرية ، فنمت فيها الصناعة ، وأخذ التعليم يزداد انتشاراً ...

ولكن في هذا الوقت نفسه ، رجع الشعب ، الذي انهمك وقتاً طويلاً في مناضلة الاجانب « المحتلين » الى نفسه ، أقصد الى واقعه : أوضاعه المادية والاجتماعية ، فوجد بعضاً منها بدائياً يتصف بالجمود والرجعة ، وبعضها الآخر مقصراً عن الوضع العام الذي بلغته الحضارة البشرية .

وهكذا فان الشعبين ، السوري واللبناني بالاضافة الى مشاركتها الشعوب العربية الاخرى في دفع النفوذ المتسلط لتحقيق التحرر الكامل ، والذود عن استقلالها ، بالذات ، ضد الاجانب « غير المحتلين » ، انهما قد طرحا على بساط البحث ، بشكل عملي جدي، كافة المشاكل العامة: المادية والاجتماعية والفكرية...

اما العراق ومصر والاردن فلا تزال هذه الاقطار العربية مرتبطة بمعاهدات مع المستعمرين، فتحد من استقلالها وسيادتها الوطنية . ولكن رغم ذلك ، فقد أصبحت القضايا العامة ذات صلة بالمسألة السياسية ، تتأثر بها ولا تنفصل عنها، وهي مثلها ، تنتظر الحل الملائم . ويتطلع أبناء العروبة في هذه البلدان الى استقلال ناجز وحرية شاملة ، وحياة عامة : اقتصاد ، واجتماع ، وعلم ، وفن

فان كفاح الشعب السوري ضد الانتداب قد أدى الى جلاء الافرنسيين عن سوريا ولبنان ، هذين البلدين العربيين ، فأصبحتا جمهوريتين حرتين مستقلتين ، لاشيء يقيد سلطتها او ينتقص من حريتها . وتفتحت أمام الشعبين، السوري واللبناني ، فرصة التقدم والتطور ، وأتيح لهما الانطلاق في طريق التقدم والازدهار والرقي . وقد خطت سوريا ، بلدنا الاغر ، بعض الخطى في حياتها الاقتصادية والفكرية ، فنمت فيها الصناعة ، وأخذ التعليم يزداد انتشاراً ...

ولكن في هذا الوقت نفسه ، رجع الشعب ، الذي انهمك وقتاً طويلاً في مناضلة الاجانب « المحتلين » الى نفسه ، أقصد الى واقعه : أوضاعه المادية والاجتماعية ، فوجد بعضاً منها بدائياً يتصف بالجمود والرجعة ، وبعضها الآخر مقصراً عن الوضع العام الذي بلغته الحضارة البشرية .

وهكذا فان الشعبين ، السوري واللبناني بالاضافة الى مشاركتها الشعوب العربية الاخرى في دفع النفوذ المتسلط لتحقيق التحرر الكامل ، والذود عن استقلالها ، بالذات ، ضد الاجانب « غير المحتلين » ، انهما قد طرحا على بساط البحث ، بشكل عملي جدي، كافة المشاكل العامة: المادية والاجتماعية والفكرية...

اما العراق ومصر والاردن فلا تزال هذه الاقطار العربية مرتبطة بمعاهدات مع المستعمرين، فتحد من استقلالها وسيادتها الوطنية . ولكن رغم ذلك ، فقد أصبحت القضايا العامة ذات صلة بالمسألة السياسية ، تتأثر بها ولا تنفصل عنها، وهي مثلها ، تنتظر الحل الملائم . ويتطلع أبناء العروبة في هذه البلدان الى استقلال ناجز وحرية شاملة ، وحياة عامة : اقتصاد ، واجتماع ، وعلم ، وفن

تحقق ما يصبون اليه من تقدم وازدهار . . هـذا ، والجزيرة العربية ، مهد الدعوة الاسلامية قديماً ، ومبعث ثورة العرب ، في هذا العصر ، في حال قلقة ، إذ لايستند الحكم فيها الى الشريعة السمحاء استناداً تاماً ، ولا الى المبادئ الدستورية الحديثة في المساواة والحرية والعدالة . ولكن الركود بكافة الوانه ، يكاد يكون الطابع المميز للحياة العامة في هذا الجزء الهام من الوطن العربي .

أما بلاد المغرب العربي ، فلاتزال تعاني وطأة الاحتلال ، ويسودها حكم استبدادي مرهق ، ويقاسي الوطنيون فيها شر انواع الاضطهاد والارهاب ، ويقف المحتلون منها موقفاً عنصرياً استعمارياً ، ويحولون دون أي مسعى وطني لتحرير البلاد والنهوض بها .

اما فلسطين ، فقد تضافرت المطامع الاستعمارية على زج ابنائها العرب في قتال مرتجل مع القوى الصهيونية التي يؤازرها الاستعمار الاجنبي . وقد كان لتلك السياسة الغاشمة دور حاسم في اقامة دولة اسرائيل وتشريد ابناء فلسطين العربيـــة في شتى الاقطار المجاورة . .

هذا عرض سريع لما استجد من التطورات السياسة في البلدان العربية بعد الحرب الاخيرة . ومن الثابت أن مهمة الأديب قـــد ازدادت خطورة وصعوبة ، بسبب تعقد الاوضاع السياسية ، وتكاثر اتجاهاتها ، من جهـــة ، واندماج القضية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية بالقضية الوطنية ، من جهة اخرى ، مما يعطي المسألة العامة شكلاً جديداً يتسم بالشمول والعمق ، في آن واحد .

فأدبنا العربي في هذه الحقبة الهامة من تاريخ الأمة ، يتحمل تبعات جسيمة . والاديب من شأنه أن يكون من رواد مصلحة الشعب العربي ، بكثرته الساحقة ،

بل يجب ان يظل فناً بكل ما توحي هذه اللفظة من معاني الجمال . ولكن حذار أن يصبح الادب فناً فحسب ، والا استحال تزويقات تبهج النظر ، وألهيات تدغدغ السمع . . وبعد ، فلا طائل تحتها ، ولا فائدة ترجى منها ...

وانما نقصد ان يظل الفن وسيلة التعبير الادبي ، العنصر البديعي الذي لا معدى عنه ، شريطة ان تكون غاية الاديب توفير الخير للبشر ، وتأمين حريتهم ، وتحقيق سعادتهم .

اما اذا اختلت الامور ، وأصبح الفن وسيلة وغاية معاً ، فاننا نقع في أدب اللفظ والبهرج ، وينحل التفكير الحي المبدع الى تداعٍ آلي سقيم ، ويصيب الادب العقم ويدب فيه الفساد ويعتوره الهزال . ومجمل القول ان الادب الذي ندعو اليه ، ونتمنى ان يزدهر في ربوعنا ، هو أدب يؤاخي بين الفكر واللفظ ، ويجمع الخير الى الجمال ، هو دوحة مباركة فيها ما يبهج النظر من اتساق الفروع ، وخضرة الاوراق ، ونضرة الازهار ، وفيها ما ينفع الرائي ويزيد متعته : اثمار شهية ، تزيد في حسن منظرها وكمال مزاياها.

فحريٌ بالادب إذن أن يكون تعبيراً كاملاً عن كافة الشؤون التي تمس حياة الناس ، وتتصل بنشاطهم العام والخاص . فهو تصوير واقعي أمين للحياة الانسانية ، وصعود بهذه الحياة ذاتها الى مستوى اعلى ، بدعوة الناس وتوجيههم الى غدٍ ابهى واحسن وحياة ارقى واسمى .

وقد يزعم بعض المفكرين ان الادب إذا كان تصويراً للواقع ، وانعكست عليه صفات عصر من العصور ، او برزت فيه ميزات بلد او حضارة معينين ، أصبح محدود الافق ، ضيق النفس ؛ وان الآداب الخالدة في تاريخ الانسانية

هي تلك التي صورت الانسان كانسان ، لا يتصل ببيئة معينة أو زمن محـــدد من حيث نفسيته وعقليته ، وميوله ومسلكه ...

ولكن الواضح لمن يتصور موكب البشرية في سيره التاريخي ، أن الواقع المـــادي والاجتماعي كان اساساً لكافة انواع الفلسفة والادب في مختلف العصور ، وان أصدق الفلسفات والآداب هي تلك التي كانت صورة أمنية للزمن والبيئة ، والتي عبرت ، في الوقت نفسه ، عن الاتجاه الصاعـد للمجتمع الذي نشأت فيه .

وكذلك يلاحظ ان اكثر الآداب خلوداً على مرّ الزمن ، هي الآداب التي رسمت الانسان الحي بلحمه ودمه ، بشعوره وتفكيره ، وذلك الانسان الذي يتصل بالطبيعة والجماعة ، ويكون بينه وبين البيئة تأثير متبادل .

فان المجتمع في كل تنظيم لايقوم على الوحـدة والتجانس ، تنشأ فيه قوى اجتماعية جديدة صاعدة ، تسعى لدحر الفئات المسيطرة سابقاً ، وتوجيه الجماعة توجيهاً تقتضيه مصالحها واهدافها . ونستطيع ان نعتبر لهذه القوى الاجتماعية المتجددة أمثلة بشرية تتمثل فيها صفات الفئات المتطورة الصاعدة ، وتحمل نزعاتها وافكارها وغاياتها : انها نمـــاذج انسانية . وهكذا نرى اذا رافقنا البشر في سيرهم خلال التاريخ ، وتدرجهم من مرحلة الى مرحلة : السيد الحر ، والشريف الاقطاعي ، وقديس النصرانية ، ومجاهـــد الاسلام ، ثم الصناعي المغامر ، فالتقدمي المستنير في هذا العصر .

أما الانسان المجرد ، فلم يكن له في الماضي ثمة وجود ، ولا يصح الظن بأنه سيوجد في المستقبل ، وان هـــو الا فكرة من زمرة « مُثل » افلاطون ،

باهتة مصطنعة لا وجود لها الا في خيال بعض رجال الفكر الذين فقدوا صلتهم بالحياة ، أقصد بالناس وما يحيط بالناس من مؤثرات .

والخلاصة ان مهمة الادب تزداد تعقداً في الظروف السياسية العامة ، والشروط الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، التي تكتنف بلادنا العربية ، إذ بلغت هذه الظروف والشروط من تشابكها واختلاطها مبلغاً كبيراً ، فلم يعد من اليسير الاحاطة بها ، وادراكها وتوجيهها . ولكن اتصال الاديب بالواقع واكتسابه العلم والمعرفة ، عنصران أوليان لتكوين أدب مشرق حي ، يعي الماضي والحاضر ، ويتطلع الى المستقبل .

وبعد فمن ينهض بهذه المهمة العسيرة ؟ إن شعبنا العربي غني بقواه المادية والفكرية ، فهو كفيل بان يقدم طليعة من رواد الفكر ، يحيون لوطنهم وحريته قبل أن يحيوا لانفسهم ، ويعملون جاهدين لتحقيق حرية امتهم ورفعتها وسعادتها .

نحو أدب جديد

« ... وهل الأدب الا حديث
عن الناس وعن الوجود ؟ »

يعاني أدبنا العربي ، في العصر الحاضر ، أزمة خطيرة ، قد تكون اذا أحسنا فهمها وعلاجها ، حداً فاصلاً بين نوعين من الادب : أدب سقيم غامض مظلم آخذ في الاحتضار ، وأدب حي واضح مشرق ، مشرف على الانبعاث .

وهذه الازمة كما اعتقد ، تتناول الأدب في شتى نواحيه : في شكلـــه وجوهره ، أسلوبه وموضوعه .

ومشكلة المبنى تتمثل في عجز جمهور العامة في بلادنا عن فهم النتاج الادبي : شعرة ونثره ، وانحباس ثمار الفكر على فئة الخاصة ممن حازوا نصيباً من ثقافة اللغة وفنون الكلام .

ولعل الباعث على هذه الظاهرة ينحل الى سببين : اولهما انتشار الجهل والامية وانحطاط الثقافة بين جموع الناس ، في الريف والمدن ، زمن الاستبداد الذي ران على بلادنا قروناً طويلة . وثانيهما تشبث الادباء بالتمسك باسلوب السلف الغابر ، موغلين في تحري الخشونة في اللفظ ، والصعوبة في التركيب ، والوعورة في الاسلوب ، مسرفين في استعمال السجع وضروب الاستعارة والكناية ، حتى كدنا نتخذ العسر والغموض معياراً لقدرة الأديب ونبوغه .

ولكن اذا كان أدب الفطرة عند العرب الاقدمين متميزاً بسهولته وبساطته وملائمته للعقول والاذواق ، فجدير بالادب العربي في هذا الزمن ان يكون واضحاً ، يسيراً على المدارك ، قريباً من الاذهان ، منسجماً مع طابع هذا العصر.

ولا يظنّن أحد أن الركاكة خير من الشدة ، وأن الضعف أفضل من التعقيد ، بل ما زلنا نؤثر الادب البليغ القوي ، الواضح المعنى ، المشرق العبارة.

اما البون الشاسع الذي يفصل بين الاديب والقارئ ، فما نجد منه مخرجاً الا في ترسم طريقين : اولهما ـ انتهاج الاديب أسلوباً أقل تعقيداً ، واختياره الفاظاً قريبة من المألوف عند الناس ، واستهدافه الايضاح والافهام وافادة الجماعة ، وبالاجمال أخذ الاديب بالطريقة العلمية في الانشاء دون بلوغ حد الجفاف والتبذل . ـ وثانيها السعي لنشر العلم والثقافة بين الجماهير بتأسيس المكتبات والنوادي الشعبية ، والاكثار من المؤسسات والمعاهد العلمية ، للوصول الى رفع المستوى الفكري واللغوي للكثرة من ابناء البلاد .

ومهما يكن لهذه المشكلة المتعلقة بالشكل والاسلوب من شأن هام ، وأثر فعّال ، فانها تبقى أقل خطورة من المشكلة الاخرى المتعلقة بالموضوع والجوهر ، أعني مشكلة المعنى .

أزمة الادب

اننا نلاحظ بقليل من العسر ، وكثير من اليسر ، أن الادب عندنا مازال يجتر المواضيع البالية ، فاما ان ينبش ميتاً من القبور ليعيده الى الحياة ، واما ان يسعى وراء اسطورة خرافية فينفض عنها غبار الزمن ، ويبعثها في ثوب قشيب.

اما اذا تحدث الاديب عن مشاكل الحاضر ، فيعالجها خائفاً مذعوراً ، يتلفت يمنة ويسرة يخشى النقد واللوم ، ويخشى اكثر من النقد واللوم .

وطغت الآداب الغربية ، في الآونة الاخيرة من كل صنف ولون على جمهرة المتأدبين ، فأصبح ادباؤنا يجهدون للتقليد ، ويفتتنون في اتباع ادباء الفرنجة في تفكيرهم وعواطفهم ، ومجاراتهم في طرقهم واساليبهم ، فغدونا في زحمة من قصائد الشعر وقصص الأدب ، وكلها عربي اللسان ، اعجمي النزعة ! ..

وفي هذه الغمرة ، نجد بعض الادباء ما زالوا يسيرون في ركاب الساسة المتزعمين والسلاطين المتوجين ، يمدحون ويهجون ، ويدافعون ويهاجمون ، كأنهم في ساحة عراك ، ولكنه عراك لايليق بالأديب أن يخوض غماره . ومهما اختلفت نزعات هؤلاء الادباء ، فانهم جميعاً يساهمون في تثبيت الحاضر ، إلى نقل في بعث الماضي ، إما بقصدهم هذا الغرض قصداً ، واما بانسحابهم من ميدان النضال في سبيل تطوير الحياة العربية ، ودفعها الى أمام لمجاراة الحضارة الانسانية الحديثة .

ويبدو لي ان أخطر مشكلة تعرض الآن ، في أدبنا ، هي تحديد علاقتنا مع العالم عامة ، وتعيين موقفنا من المدنية الحديثة القائمة في الغرب خاصة .

فمن الثابت ان الحضارة في طورها الاول قد نشأت في بلادنا الشرقية ، وان حضارة الاغريق لم تكن الا وليدة حضارات مصر وبابل والهند وسائر بلاد البحر المتوسط . وكذلك ، فان الحضارة العربية في القرون الوسطى ، قد أفادت ، الى حد بعيد ، من المدنيات اليونانية والفارسية والهندية ...

ولما أتاحت الظروف للغرب الاوروبي أن ينهض ، فانه استعار لبناء مدنيته

الراهنة من الامم الشرقية ، وخاصة الامة العربية ، الكثير من علومها ، والوافر من اختراعاتها في كافة مجالات النظر والعمل .

ولذا فان الصلة وثيقة بين حضارات الامم جميعها ، بل هي حلقات متصلة في سلسلة واحدة لا يصح تجزيؤها ، وان كانت الحضارات الشرقية ، لعوامل لا شأن لنا بذكرها الآن ، تستند الى الالهام والحدس والايمان ، بينما تقوم المدنية الحديثة على الشك والتجربة والتحقيق العلمي .

ولكن الأوضاع التاريخية جعلت الغرب الذي نمت فيه الصناعة ورأس المال في القرنين الماضيين ، يغزو الشرق الذي غفا قرونا طويلة ، واستفاق بعدها ينشد الحرية والعرفان ، ويتطلع الى غدٍ مجيد يضارع ماضيه التليد .

وكان طبيعياً ان تصطدم الشعوب الشرقية الناهضة بالمستعمرين الغربيين ، وقد تسابقوا لاقتحام الأسواق واغتصاب الموارد بالقهر والقوة . وكان طبيعياً أيضاً ان ينكر الشرقيون للمدنية الغربية ، متوهمين أنها منبت الشر والعدوان ، ومورد الطمع والرذيلة ، وأنها العلة في كل ما عانوه من جور المستعمر واستغلاله . وبتأثير ذلك ظهرت دعوة الى الابتعاد عن مدنية الغرب ، مع ما تتسم به من الاعتماد على العقل ، والاستناد الى الآلة ، والى الحفاظ على التقاليد المتوارثة عن عهود الانحطاط والتأخر .

واذا كان لهذه الدعوة ما يبررها في بدء تفتح النهضة الشرقية بصورة عامة والعربية بصوره خاصة ، بسبب الجهالة والتأخر الفكري الشامل ، فلم يعد لها اليوم من مسوغٍ ، بعد أن خطا العرب خطوات ميمونة في مضمار التقدم

والرقي ، وقبسوا العديد من ثمار الحضارة الغربية في ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع .. وبعـــد أن تكشف الغرب عن قوى جديدة ، ظهرت بصدق الحاملة لقيم الحق والخير في الارض ، والأمينة على تراث الحرية في الدنيـا ، والحارسة للحضارة المادية والفكرية للبشر .

ومع ذلك فقد ظل اتجاه الرجعية مستمراً ، سالكاً شتى السبل للحيلولة دون التطور ومجاراة التقدم الانساني . والغريب في الامر ان يتطوع للذود عن هذا الاتجاه ، بل لحمل لوائه ، أديب قضى في المهجر شطراً مديـــداً من حياته، الا وهو ميخائيل نعيمة .

فهو يقول في كتابه « زاد المعاد » : « الا أطلقوا خيالكم من أقفاص العقل وحلقوا به حيثما حلق بكم . عندئذ تجدون أن ليس في الكون ارجاء الا ولكم فيها أثر وعندئذ ، تلمسون أنفسكم في كل ما تلمسون ، وتبصرون أنفسكم في كل ما تبصرون ، وعنـدئذ تتذوقون نشوة المعرفة بأنكم والحياة بأسرها وحدة لاتتجزأ » .

اني لأرى أديبنا الكبير ينطلق في عالم التخيلات والرؤى ، وينصرف مختاراً الى عقائد الصوفية والتقمص ، بينما نحيا اليوم في عالم يحركه العقـل المفكر المبدع ، وزمن أصبحت فيه التجربة الواقعية المادة الوحيدة للحقيقة . ولم استطع ، رغم ما بذلت من جهد ، فهم ما يرمي اليه من قصد بهذه المعرفة المنبجسة عن الخيال والوهم ، لانني أعلم أن الفكر وحده سبيل المعرفة وأداتها . ولذا فاني اتساءل بشيء غير يسير من الدهشة : هـل تصح هذه الدعوة الى الانعتاق من العقل والتحرر من « القفص » ، ونحن العرب نقف الآن على

ابواب نهضة شاملة سيكون بل يجب أن يكون عمادها العقل الواعي والفكر التجريبي ، والمنطق العملي ؟ !

ويقول أيضاً في مؤلفه هذا : « ولكم سمعتكم تقولون لنقتبسْ من الغرب حسناته ، ولنضمها الى حسناتنا ، وعندئذ تكتمل لنا السعادة . أولا تعلمون أن لكل ماتقتبسونه وجهين : وجهاً صالحاً ووجهاً طالحاً ؟ فأنتم إن اقتبستم مثلاً حكومة البرلمانات اقتبستم مع محامدها كل مفاسدها ، وان أخذتم السيارة أخذتم مع بركاتها كل لعناتها » .

ترى ماذا يريد بصرفنا عن مدنية الغرب ، وتركنا كل ما استحدثت من نظم حكم تهدف ضمانة حق الانسان وحريته ، وآلات وقوى تحرر الفرد من العناء وتضاعف قدرته على الانتاج ؟ أعودَهُ الى الزراعة البدائية ورعي الماشية ، أم رجوع الى نظام العشائر او سلطان الملوك المتألهين ؟!

ويقول في مؤلفه « البيادر » متنكراً لمدنية الغرب : « أما القلب فتتركه فارغاً ، وأما الروح فتعلقه على مشنقة الشك والحيرة والابهام » . ويسخر من الاستقلال ، فيقول في معرض كلامه عن الشرقيين : « فهم يحلمون فيما يحلمون بعنقاء يدعونها الاستقلال ، ويتوهمون أنهم اذا ماظفروا بها يوماً ظفروا بالغبطة التي ما بعدهـــا غبطة » . ويهزأ من العلم والفن اذ يقول عن مدنية الغرب : « وخلقت لطالب الجمال والكمال تمائم دعتها الفنون ، ولطالب المعرفة تعاويذ أسمتها سنّة النشوء وتنازع البقاء » .

لست أقصد في دفعي كلام الاديب ، وابداء استغرابي الشديد منه ، أن أنزّه مدنية الغرب عن الشوائب ، أو أنكر قيمة حضارة الشرق عامة ...

فاني كثير التعصب لعروبيتي وشرقيتي ، أكثر من التمدح بمآثر الاقدمين من شعوب بلادنا العريقة في المدنية والرقي ، وابراز فضلهم على الحضارة البشرية جمعاء ، ويسرني الامعان في التحدث عن أمجـــاد اجدادنا العرب ، وعما استحدثوا من صنع واختراع ، وما ابتكروا من علم وفن ... ولكن اعتقادي الجازم ان عمل اولئك وهؤلاء ، انما هو نتاج الفكر الكادح وصوغ الذهن الجاهد المتصل بالحياة في واقعها ، والطبيعة في حدثانها ، والازمان في جريانها؛ وان الخيال لم يكن لهمن دور في تلك المستحدثات الرائعة سوى دور التحريض والاثارة .

ومن أوليات علم التاريخ ان الحضارة قوامها المادة والفكر ، سواء أكان ذلك في العصور القديمة أو الحديثة ، ولذا أجد من الغرابة انكار فضل الغرب في دفع الحضارة بقطبيها المادي والفكري دفعـات هائلة الى أمام ، في بضعة القرون الأخيرة ، والتمسك بأسباب من الوهم والخرافة طفت على سطح الخضم الحضاري الشرقي في دور النكسة والانحطاط .

وأي عائق يعيقنا ، اذا أحسنا الفهم والاختيار ، عن اكتساب افضل ما يرقى بشعبنا ، ويشد أزره في كفاحه الجاهـــد ، من الغرب ، نضيفه الى ما ورثناه عن آبائنا من مزايا حسنة وميول رفيعة ، ونطرح عنا كل ماعلق بنـا في سيرنا خلال الزمن ، من تقاليد واوهـام تبلد الذهن ، وتوهن العزم كما نعزف عن مساوىء المدنية الغربية التي تتنافى مع مصلحتنا واتجاهنا وخاصة ماشاخ من مظاهرها ، واعتراه التفسخ ودنا من الزوال ؟

والى ماسلف ، أليس من المنـكر ان يسخر أديب عربي من الاستقلال

ويحط من شأنه ، ولا يجد فيه « غبطة » تستحق أن يبذل للظفر بها جهد أو عناء !

انه ليبدو بديهياً أن الاستقلال السياسي والاقتصادي ، والخلاص من ربقة الاستعمار ونفوذ الدخلاء ، لهو نعمة لاتضارعها نعمة . واذا شئنا الا نعتبره غاية ، فهو ، في ادنى حال ، الوسيلة الوحيدة الصالحة لتأمين رفاهية الشعب ، وتحقيق عزه ، وبعث عبقريته .

هذا ، بالاضافة الى ان العرب ، في هذه الآونة ، ليسوا « مترفين » سياسياً ، بل من أعز أمانيهم وأهم غاياتهم التحرر السياسي بغية استعادة انطلاقهم نحو مثل عليا وغايات بعيدة .

وبعد ، فأديبنا قد جاب الشرق والغرب ، وشهد بأم عينيه ، أضخم بلد صناعي في الدنيا ، من ناحية ، وشر ضروب الاستعمار والاستثمار من ناحية أخرى ، فهل هناك ما يبرر تحليقه اذن في عالم مسحور ، عالم الغيبوبة في رؤى لاتقوى مقل الاحياء الذين يدبون على التراب ، على استشفاف اشكالها واستجلاء الوانها ؟ !

ولا غرابة بعد هذا إن دعا نعيمة الى الخنوع والذل ، وعلم التواكل والخذلان ، بعد ان نعى مدينة العقل وتراث البشرية . ولكن يجدر بنا أن نستقصي منشأ تشاؤمه ويأسه وروحيته المظلمة . فهو يقول في كتابه « زاد المعاد » :

« في الولايات المتحدة « ١٩٣٢ » التي هي اليوم حادية البشرية ، جبال من الحنطة وجموع غفيرة من الجياع . وفيها ألوف من المساكن الفارغة وألوف من الذين لامأوى لهم . وفيها أكداس من الاقمشة وجماهير الناس تكاد أثوابهم

البالية تلتصق بجلودهم ، وفيها من الاختراعات ما لايحصيه ذكر ، ومـــلايين يطلبون عملاً فلا يجدونه... تركت نيويورك وفي أذني ولولة الانسانية بأسرها، ولولة تكاد تحسبها حشرجة الموت ، ولولة لاتسمع منها الا كلمة واحدة : الازمة، الازمة ، الازمة » .

اننا لنراه قد صور الواقع أصدق تصوير . هذا الواقع الذي بثّ في نفسه الكآبة والحزن ، والاستسلام الى القضاء والقدر ، كما لايزال يبثها اليوم بميلر في امريكا ، وبول سارتر في فرانسا وأضرابهم في شتى الاقطار .

ويالأسف ، فان نعيمة عندما يحاول ان يعلل هـذه الظاهرة ، يبطل أن يكون مثقفاً من مثقفي القرن العشرين الذين وعوا تراث الاجيال الفكري ، فيتقمص سحر البابليين الذين كانوا يبحثون عن علل الوقائع برصد النجوم ، ومراقبة الافلاك ، أويقابس جهل الغربيين في القرون الوسطى حين نسبوا انتشار الطاعون الى فساد النساء تارة ، وانحطاط اليهود ورجال الدين تارة أخـرى . وهـو ينقل المشكلة ، من واقعها المادي البحث ، الى المجال الروحي فيغيب في معميات لاسبيل الى فهمها ، أما اذا حُلت رموزها فلا سبيل لاثباتها بالعمل ، فلنسمع اليه يقول بلهجة الخبير الواثق : « ليس يحزنني أكثر من الذين يفتشون عن داء المدنية في مفاصلها ، ويبتدعون من العقاقير الاقتصاديـة والمالية والاجتماعية ما يضحك ويبكي ، وداؤها في رأسها وفي قلبها » .

ومجمل القول أن المستعمر في الغرب قد خلق « مسألة شرقية » يستثمرها في فرض سلطانه على شعوب شرقية عديدة منها شعبنا العربي العزيز ، وشاء بعض أدبائنا ومفكرينا أن يخلقوا « مسألة غربية » تعنى ببحث ما يصح او

لايصح اقتباسه عن الغرب ، فدعموا موقف الاستعمار وبرروا صنيعه وساعدوه على إخماد جذوة الحرية وشعلة المدنية لدى هذه الشعوب .

واني أعتقد أن هذا الأدب الروحي المظلم ، الذي يحمل في اطوائه اليأس والتشاؤم ، والحيرة والاستسلام ، لهو دافـــع الى الرضى بالواقع ، وحافز الى القناعة بالحال الراهنة ، بل هو حجاب كثيف يحول دون تسرب أشعة الشمس وانتشار النور وانبعاث الحياة ...

والى جانب هذه الروحية الهزيلة ، أود أن أشير الى الوان أخرى من الأدب لاتمتُ الى الفكر العربي الانساني ، ولا الى الفهم الواقعي الصحيح بصلة من الصلات ..

فاذا تحدث بعض أدبائنا ومفكرينا عن الأمة العربية مثلاً ، خلنا ابناءها أشباحاً تهيم فوق الأفق الرحيب ، أو حسبناهم طيوفاً أطهاراً تنزلوا من الملأ الأعلى ، واذا تحدث آخرون عن هذه الأمة غابوا في زحمة الذكريات ، وطفقوا يتنبؤون بالرسالة والمعجزات ، وانسحبوا بعقولهم ومشاعرهم إلى سماوات زاهية تتلألأ فيها النجوم !

ترى إلام نبقى متطفلين على آراء بعض مفكري الغرب الذين يمثلون الانحراف في تيار الفكر الانساني الصحيح ، وإلام نظل نستقي من مثاليـــة بركلي المتفسخة ، وعصبية « روزنبرغ » الجامحة . . من هذا المستنقع الكدر !

أما آن لنا أن نعود الى وضوح الحقيقة وبساطة الواقع ، ونهتدي بحواسنا وعقلنا الى أن الأمة العربية : شعب يواجه في هذه الآونـة ، أشد المحن من الداخل والخارج ، وأن مهمته تتلخص في النضال العنيد ، الذي لاهوادة فيه

للتغلب عليها ؛ وأن هذه الأمة ، انما هي فلاحون يرجون تحرراً من الاقطاع وعمال كادحون يبغون عملاً وازدهاراً ، وتجار وموظفون ومثقفون يطلبون أمناً وحرية وسلاما ...

ومنذ أمد ليس ببعيد ، أنشأ جماعة من الادباء رابطة في دمشق . وسرعان ما أخذوا يبحثون عن اسم لهذا المولود الكريم . أليس الاحياء أسماء يعرفون بها ، سواء أدلت عليهم أم لم تدل ؟ ولاعجب أن ينافي الاسم المسمى ، فقد جاء في الاساطير أن أحد الملوك المتوجين من بني يعرب قددعا الرق حرية والاحتلال استقلالاً والمغتصب صديقاً ! ... ذلك جاء في الاساطير ، ولكن جماعة الادباء هؤلاء أبوا اليوم إلا أن يدمغوا رابطتهم بسمة تلائمها أتم ملائمة ، وتشير اليها إشارة النجوم إلى هبوط الليل أو إشارة الدمع إلى انفجار اللوعة والحزن ! وبعد إجهاد النفس وقدح الذهن ، دعوا الرابطة « بعصبة الساخرين » .

لقد تساءلت وما زلت أتساءل : ممن يريد هؤلاء ان يسخروا ؟ أتراهم يبغون السخرية من الناس ؟ ولكن الناس فيما أعلم لايستحقون سخرية الادباء ، بل هم أجدر بالمحبة والاحترام ، أم أنهم عازمون على الهزء من أوضاع بالية ونظم عقيمة وعادات فاسدة تكبل الحرية وتشل التقدم وتعيق التطور ؟ ولكن النقمة على هذه الاحوال السيئة أجدى من الهزء ، والثورة بها خير من السخرية منها . ولكن لن نظلم هذه الفئة المختارة من حملة أقلام ، حبذا لو كانت من حديد لامن قصب ، فلعلهم ينوون أن يسخروا من المستعمر الغاشم الذي مافتئ يغزو بلادنا ، يصعد اليها من الماء حيناً ، ويهبط عليها من الفضاء حيناً آخر ، وفي يمناه سيف مصلت ، وفي يسراه كيس يبغي إملاءه من كنوز أرضنا وشقاء شعبنا ،

وما تثبت قدماه على ساحلنا ، او في صحرائنا حتى يسدد سهمه المسموم الى صدر كل من يهمس بالحرية ... أجل فلعلهم ينوون أن يسخروا منه ، ولكن عجباً أي عجب الا يكون الطاغية المستبد موضع الحقد والضغينة وغرض الكره والبغض !

أخشى ان أظلم هؤلاء الادباء ان زعمت انه لم يبقَ من محلٍ لسخريتهم التي نرجو ان تكون لاذعة ، الا أنفسهم . ولكني لاأزعم ذلك ، بل حسبي أن أقول : إنهم لم يسخروا حتى الآن من شيء ، فربما كانوا يبحثون عن بغيتهم دون أن يستطيعوا لها ادراكاً حتى الآن . .

وهكذا نجد آسفين أن أدبنا الناشيء مازال حسير النظر ، مهيض الجناح ، ينظر الى الماضي اكثر مما ينظر الى المستقبل ، ويهتم بالفرد أكثر مما يهتم بالجماعة ، يتعلق بالحلم اكثر مما يتعلق بالواقع ، إنه ادب شاحب ليس فيه دفقة من دفقات الحياة الوثابة الطموح . . .

مسؤولية الادب

يزعم بعض الادباء والمفكرين في بلادنا ، ان التبعة فيما انتاب الامة العربية من بلاء ، وما اصابها من محن ، انما تقع على عاتق المثقفين الذين تخاذلوا ، ولم يتشقوا سيوفهم المذود عن الوطن ، بل أود أن اقول إنهم تخاذلوا ولم يحاربوا براً وبحراً وجوا !

واعتقادي ان المقصود بهذا الزعم صرف التبعة عمن تقع عليهم التبعة حقيقة لتجنيبهم نقمة الشعب ، وغضب المثقفين وغير المثقفين من أبناء هذا الوطن .

وان المراد ايضاً هو اشاعة التشاؤم واليأس باللجوء الى حلول ايديولوجية كمعرفة النفس والتفحص الوجداني والتدقيق النفساني !

واذا كنت ممن ينعون هذا الضرب من التفكير ، فلست اقصد تبرئة المثقفين ، أو امتداح موقفهم من المشاكل الوطنية العامة . ولكن يجدر بنا اذا شئنا حسم الداء أن ننظر الى البواعث التي أدت اليه لدرئها والحيلولة دونها .

فمن الواجب عندما نبحث عن هزال الثقافة وخذلان المثقفين أن نشير الى أن الثقافة عندنا ناقصة كماً وكيفاً ، مضطربة لاتمس جوهر الحياة ، ولا تحشد قوى الانسان لتحقيق المثل الاعلى ، قاتمة لاتصور سوى الوجه الاسود من المدنية الحديثة ، جافة لاتصل بين الفرد المثقف وبين افراد الشعب ، فينعزل عنهم الى تصوراته وأوهامه . ومن الواجب أن نشير أيضاً الى الاستعمار البغيض الذي نشر بين المثقفين الذعر والخوف ، مدة طويلة ، والى أساليب الارهاب والاستبداد التي اتبعها في القضاء على شعلة الحرية المنبثقة عن العلم والمعرفة ؛ وأن نشير بالتالي الى الاوضاع المادية الحرجة التي تكتنف المفكر الحر ، والى المصير البائس الذي يلاقيه إذا ماخاض معركة الشرف والحرية ، دون التكاتف والتساند مع فئات المثقفين والاحرار من أقرانه .

ولكن اذا كان يقيناً ان المثقفين ليسوا المسؤولين الأول عما عصف ببلادنا من نوائب ، فانهم على أي حال ، لم يقوموا بواجبهم في معركة النضال التي خاضها الشعب العربي ضد قوى الطغيان والشر .

ويود بعض الادباء أن يعتصموا بالحياد ، ولكنه حياد أشبه بالهزيمة ، اذ ليس ثمة حياد حقيقي حتى في الادب والفن . فقد يلحق اليأس ببعض

المثقفين والادباء أيضاً فيهجرون الحياة العامة ، وينزوون في أبراج تكاد تشبه صوامع النساك ، يصمون آذانهم عن أنين الاحياء ، ويغضون الطرف عن آلام الناس ، متذرعين بأن الفن غاية في ذاته ، كادوا يقولون إنه صنم معبود . لقد أخطأ هؤلاء ، إذ ليست النزعة الى الانفراد حياداً بالمعنى الصحيح ، بل كل ما يفعله هؤلاء المثقفون والادباء بتهربهم من ميدان العراك هو انهم يساهمون في الابقاء على الظلم والفساد .

وهنا ونحن في سبيل دفع الاديب الى غمرة الاحياء ينبري بعض المتحمسين للفن ، فيزعمون أن الاديب يستطيع ان يكون حراً فيما يقول ، وحراً فيما يعمل دون أن يحد انطلاقه في التفكير والعمل حد أو يقيده قيد . ويبلغ بهم الامر أن يوهموا الناس بأن الاديب ، والشاعر على وجه أخص ، لا يصح أن يسأل عما يبدر منه ، ولا يحسن أن تطبق عليه مقاييس الاجتماع وقيم الاخلاق !

ترى ماذا يريد هؤلاء الغيارى على حرية الاديب أن يجعلوا من صاحبهم اذا هم أخرجوه من زمرة الاحياء الكادحين على وجه الارض ، وانتزعوه من جماعة المواطنين الشرفاء المقبلين على الحياة بافراحها وآلامها ؟

اني أؤكد لهم أن الأديب لا يمكن ان يصير الى ما يشبه المعتوه أو الطفل ، بل سيبقى أبداً ، ويجب أن يبقى عضواً في مجتمع وجزءاً من أمة ، وهو بهذه الصفة أجدر الناس بالنهوض بالواجب وتحمل التبعة .

من يجرؤ على القول إن الاديب حر في الاعتكاف ببرج عاجي ينصرف فيه الى أوهامه واحلامه المخدرة ، بعيداً عن واقع الشعب ومجرى الحياة على ظهر هذا الكوكب الذي نعيش عليه . ومن يستطيع أن يؤيد حرية الاديب في

صرف الشعب عن أهدافه ومُثُله الى ألهيات رخيصة وأضاليل لا طائل تحتها أو في الدعوة الى اليأس والاستسلام والحث على الخضوع للجور والاستبداد أو في انصرافه الى إثارة الغرائز والترغيب في الخلاعة والاغراء بالرذيلة ؟

وما قول أنصار حرية الاديب في أديب يشتم العلم وينفّر منه ، ويحارب الفكر وينعي المدنية التي صاغها الفكر ، ويحاول متعمداً أو غير متعمد أن يقف حائلاً دون تطور الشعب في مدارج الحضارة ليشد الناس إلى ظلمات العصور السحيقة .

لم تعد الناس تنصت الى هؤلاء الادباء المتأنقين المتحذلقين الذين يتحمسون لكل فكرة ، وينتصرون لكل رأي ، ولا يستطيعون أن يقيموا لهم هدفاً شريفاً او مبدأ ساميا يسعون وراءه . ولكن لنتحدث بصراحة ، فهل قدر للادب الا ينبت الا في الحانات والملاهي ، والا يتغذى الا بالسكر والخلاعة ! وهل فرض عليه الا ينهل الا من دموع الحزانى البائسين ، والا يعيش الا من اشلاء القتلى والمعذبين ؟ !

ولِمَ يتألم الشاعر لزهرة ذابلة ، وتلتاع عاطفته الرقيقة لشجرة عرّاها الخريف من أوراقها الخضر ، ولا تحرك شعوره المرهف صيحات المرضى والمشوهين ، وآهات العديد من المظلومين من بني الانسان ؟ !

ولم يطرب الشاعر لصداح البلبل ، ويهيج للوردة الناضرة ، ولا يطربه صوت القيود تحطمها الشعوب المستعبدة ، ولا يبتهج للديمقراطية تظفر بالاستبداد والمدنية تتغلب على الهمجية ، والفكر الواعي ينتصر على الخرافة والجهل ؟

إننا صرنا في زمن يعجز فيه الأديب ، عجز كل فرد سواه ، عن فرض

احترامه على الناس واستخلاص رضاهم واعجابهم قسراً وقدرة ، إذا أصبحت قيمة الانسان ، كائناً من كان ، تقاس بقدرته على التجاوب والتفاعل مع المجتمع، وباستطاعته التعبير عن اتجاه الجماعة في مجرى الانسانية ، وبطاقته على تحمل أعباء الكفاح المستمر لادراك المثل الاعلى ، أو بمعنى آخر إن الانسان ينبه ويعلو كلما اندمج عضوياً في الجماعة ، وانساق معها في الطليعة لتحقيق أهدافها وامانيها ومن هنا كانت الامة هي صاحبة الحق في إدانة الأديب . فاذا لم يخلص لهـا ، ويذد عنها ، بل استبدت به الأثرة وأعمته الشهرة ، تعرض عنه وتنفر من كل ما ينشر ويذيع . وبالتأكيد ، فان الاجيال التالية لاتكون أقل إعراضاً ونفوراً فيصير هذا الاديب الى قضائه المحتوم وهو الاهمال والنسيان .

ولعل في هذا ما يفسر لنا حال هؤلاء الادباء الذين يضجون بالشكوى من الناس ، ويسخطون عليهم ، يرمونهم بالحمق حيناً وبالغباوة حيناً آخر ، ذلك أنهم لايلقون منهم إقبالاً على ما يؤلفون ولا استحساناً لما ينشرون ...

ولكن ليسمح لي السادة الناقمون على الشعب أن أسألهم : كيف يتيسر لهم أن يقذفوه بالشتيمة ، وينتقصوا من قدره لو كانوا أفراداً منه ؟ ! وكيف يرجون أن يلتقوا مع الجماهير في صعيد واحـد ، وهم سائرون في درب لاتسير هي فيـــه ؟

إني انصح للأديب ، إذا شاء ان يحفل الناس به ويرحبوا بما يؤلف وينشر ، أن يكف عن اجترار ذاته ، والانطلاق وراء تخيلاته ، والانغماس في اهوائه ... وان يتحدث عن ابناء الارض العاملين في حقولها ، الناشطين في مناجمها ، الساعين على ظهرها ، وان يفصح عن امانيهم ويساير أهدافهم ،

ويعمل لتعزيز قوامهم وشدّ أزرهم .. أنصحه أن يجهد لغزو عقول الناس وقلوبهم قبل غزوه أعمدة الصحف ورفوف المكتبات !

الأدب والسياسة

واذا تكلمنا عن عزلة الاديب ، فلسنا نعني بها انقطاعه الى التفكير ، وانصرافه الى التأمل ، بعيداً عن مشاكل الناس ومشاغل الحياة اليومية ، فهذه العزلة شرط للابداع الصحيح ، ويشترك فيها مع الأديب العالم والفيلسوف وكل عامل في حقل الفكر . وهي مجدية نافعة للاديب نفسه ، وللناس الذين من أجلهم يفكر الأديب وينشىء .

وانما نعنى بالعزلة ، ضرباً من القطيعة بين الاديب وبين الحياة والاحياء ، واستسلاماً الى تصورات ومشاعر لا تمتّ الى الواقع بصلة ولا تبتغي غاية معقولة ، وانصرافاً الى فن ، قال فيه عمر فاخوري : « ذلك الفن الذي لا يستسلم الا لخطرات الخيال ، فيسحر الناس باختراعاته الجميلة وتلفيقاته الانيقة ، ويسكن عالماً مسحوراً لا تلج بابه الحقيقة المملة المحزنة ، بل تسرح فيه الاساطير والخرافات والاوهام والرموز حرة طليقة تحت سماوات خيالية تزينها الكواكب الدرية » .

لاريب أن الاديب ليس حراً في الانزواء عن المجتمع والابتعاد عن الواقع والانطواء على نفسه ، وإلا كان : « ذلك الاديب الذي لو قطعت شرايينه لما أخرجت الاّ حبراً ، ولو مزقت لحمه لما أخذت الا ورقاً » . أوليس عجيباً إذن ، أن يزعم أديب أنه آخذ بوضع قصة ليست كالقصص المألوفة ، وإنها قد تستغرق

السنين الطوال ، وانها ستزخر بالآراء التي لا يمكن للجمهور أن يرتقي بادراكه القصير الى فهمها ، وأنه سيطبع منها خمسين نسخة فقط لتكون وقفاً على خاصة الخاصة ؟ !

يحدد عمر فاخـــوري ، أديب العربية الكبير ، مهمة الأديب ، وجوهر الأدب بقوله : « الأديب من كان على اتصال دائم يقظ بهذا الوجود الذي يحدّث عنه ، وبهؤلاء الناس الذين يتحدث عنهم - إليهم - وهل الأدب الا حديث عن الناس وعن الوجود ؟ »

أجل حريّ بالأديب ان ينزل الى السوق كي يرى ويسمع ، ويشعر بشعور مواطنيه ليسعى للتعبير عن آمالهم وأمانيهم . وخليق بالأدب ان يكون سلاحاً لخدمة الحق والذود عن الحرية ، والكفاح في سبيل تحرير البشر من كل ما يعيق تقدمهم ، لا أن يكون كما قال أحـــد أدبائنا الكبار : « ألهية يتلاهى بها العقل ! »

ولنسمع الى هيغو يقول : « من الخطأ بل من الجناية أن يخطر ببال الأديب انه يحق له أن يكون بمعزل عن مصالح قومه ورغائبهم ، وأن يعدل بقريحته عن التأثير في أهل عصره وأبناء زمانه ، وأن ينفرد بحياته فلا يكون له عمل في البناء الاجتماعي ، فمن الذي يخلص النية في هذه الاعمال الجليلة غير الشاعر ، وأي صوت يعلو في العواصف غير صوته ، أو أي وتر يستطيع ان يخفف من من شدة العواصف غير وتر قيثارته ، فمن الذي يقتحم الفوضى فيذهب بمقابحها ويهجم على الاستبداد فيدرج بمكارمه ، وقديماً كان الشاعر صاحب الأمر النافذ في الجمع بين الشعوب والملوك ، وحديثاً له الامر في التفريق بينهم . »

وفي الواقع، ليس من ينكر أثر الادباء الافرنسيين، في القرن الثامن عشر، في بعث الثورة الفرنسية واشعال جذوتها. فهم الذين نبهوا الشعب، بعناد وجرأة، الى وضعه الزري وحاله البائسة. وأروه المظالم التي يقترفها الاستبداد، ودلوه على المستثمرين من الحكام واصحاب الاقطاع ورجال الدين، الذين ينهبون جهوده واتعابه. وقد رسموا له طريق التحرر من الحكم الجائر، والخلاص من المذلة، فكانوا هداته في ثورته العارمة، وطليعته الى بناء نظام جديد قائم على أسس المساواة والاخاء والحرية. انه فخر وأي فخر للادباء أن يضطلعوا بمهمة الهداية، هداية البشرية الى حياة اسمى، ومصير افضل.

وقديماً قال ابن رشيق: «كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيهم شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الاطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الاعراس، ويتباشر الرجال والولدان، لانه حماية لاعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم ...».

فاذا كان الادب في الجاهلية تصويراً للحياة وتعبيراً عن آمال الناس، في حالهم القبلية، فهل يصح ان يكون اليوم دمية يلهو بها المترفون، او أكاليل غار تضفر بها رؤوس الظالمين الطغاة!

وقد قال الدكتور طه حسين في كتابه «من حديث الشعر والنثر»:

«اذا قرأتم قصيدة من شعر جرير الفرزدق أو الأخطل، فأنتم ترون العرب في البادية وتسمعونهم يتحدثون، وتحسون حياتهم كما تحسون أنفسكم ولا تكادون تلمسون شخصية الشعراء في أشعارهم. فاذا لم توجد عندنا الياذة أو أوديسا، فليس من شك أن ما أدته الالياذة والاوديسا قد أداه لنا الشعر القديم من تصوير الحياة الاجتماعية وحياة الابطال فلو لم يكن للأدب العربي

الا أنه قد حمل لواء الادب الانساني والعقل الانساني في عشرة قرون لكان هذا كافياً للاعتراف بأن هذا الادب من الآداب التي تعتز بنفسها ، وتستطيع أن تثبت لصروف الزمان » .

فهل يليق بالأديب ، بعد هذا الذي سمعناه ، أن ينعزل في برجه العاجي ، يدور في أفلاك بعيدة المدى ، من ضروب المعاني والالفاظ ، وقد قطع كل صلة تربطه بالحياة والاحياء ! ومن أقدر منه ، إذا شاء ، على التأثر بآلام الناس والتحسس بمشاعرهم ، والاطلاع على آمالهم وأهدافهم ، فلِمَ لا يكون لهم إذن ، المغني المطرب ، والخل المؤاسي ، بَلهَ القائد المخلص الشجاع ؟!

ليس ينكر على الأدب ان يهدف صقل النفس وتهذيب الشعور وتنقية الخلق ، فهذه من أولى مهماته ، بل ينكر عليه أن يكتز في القصور مع الذهب والفضة ، وأن تحلى به مغاني المجدودين ، ورثاء المجد والثراء ، وان ينتظم بين أصناف اللهو والعبث بريئة وغير بريئة !

خليق بالأدب أن يدلف الى أكواخ التاعسين ، وأن ينطلق الى الحقول حيث يجهد العاملون في غير كلل ، وأن يهبط الى المناجم والمعامل حيث يكدح الكادحون ويشقى الاكثرون . وجدير به أن يكون سلاحاً لهؤلاء يذودون به عن حقهم ، ويستمدون منه إيماناً بانسانيتهم ، وعزيمةً في كفاحهم الدائب في سبيل حياة حرة ، لايستعبد فيها القوي الضعيف ، ولا يأكل الانسان لحم أخيه الانسان .

ويتحدث الأديب العالمي الكبير ماكسيم غوركي عن صفات رجل الادب فيقول : « إن الأديب يجب ان يتصف بالكراهة الفعّالة لكل ما يستعبد

الانسان من قيود خارجية أو باطنية ، وبالنقمة على كل ما يحول دون تطوره الحر وتكامله المستمر ، والاشمئزاز من جميع الكسالى والطفيليين والانذال الذين لامبدأ لهم .. وأنه يجب ان يبذل كل جهده ويستخدم جميع الوسائل ليعلم الناس السمو والبطولة ، ويبعث فيهم الثقة بقدرتهم على التقدم ، ويساعدهم على إدراك معنى الحياة وأهمية العمل ولذة السعي ... »

واذا كان لزاماً على الأديب أن يحس بآلام الناس ويشاطرهم أفراحهم ، وأن يهدم ليبني ، وينقد ليصلح ... فمعنى ذلك أنه يمارس « وظيفة اجتماعية » هي دعوة الناس الى عيش أفضل وحياة أرغد ، وهدايتهم إلى انسانية حرة خالية من الأدواء ، مشرقة بالفضيلة والسعادة . ولكن ، أليس من دواعي هذه « الوظيفة الاجتماعية » التي يجب على الأديب أن يتحمل اعباءها ، أن ينخرط في سلك السياسة ، ويرى رأياً في كل ما يحدث في بلده ، ويقف موقفاً من كل ما ينتاب أمته ؟ .

لاريب أن الادب منعقد الصلة مع السياسة ، وإن حاول بعض الساسة المرتزقة أن يجعلوا من السياسة كهفاً مرصوداً أو « اختصاصاً » في تعبير اليوم ، فلا يلج هذا الكهف الا من يفك الرصد ، ولا يمارس ذلك الاختصاص الا من تربى على أيديهم . أما فك الرصد ، واما التربي على أيديهم ، فأمر لا شأن لي به الآن ، وانما حسبي أن أعود الى القول : إن الادب منعقد الصلة مع السياسة .

ولست أقصد بالسياسة الانضواء الى احدى الفئات التي تبتغي الحكم سياجاً لمصالحها ودرعاً لتحكمها ، أو الالتجاء الى أحد المتنفذين من أصحاب الحول والطول ، والتطوع للدفاع عن تلك الفئة أو هذا المتسلط ، وإنما أعني

بالسياسة الكفاح الوطني والاجتماعي الصادق ، والسعي الدائب لتطوير الحياة القومية وتحقيق التعاون الانساني بأكمل صوره .

ولست أعتقد أن في مقدور أي أديب كان ، ان يفلت من السياسة ، وأعني بها مشاكل البشر وأمور الحياة وشؤون المجتمع . أما هؤلاء الذين يدعون العزلة والحياد والاهتمام بالفن وحسب ، فانهم من غير دراية منهم يمارسون نوعاً من السياسة ، ذلك أنهم يؤيدون الواقع ويسايرون الوضع القائم ويرضون به ، بسكوتهم عنه وعدم تعرضهم له . وقد يطرب كثير من الساسة لحياد الادباء لأنهم طالما يخشون نزول الأديب الى السوق ، الى عالم الواقع والأحياء .

ولنصغ الى النقادة سلامة موسى يتحدث عن شوقي : « لا يستحق ادباؤنا اللوم على أنهم أخضعوا أدبهم للسياسة بل الحق انهم يستحقون الثناء والحمد . وحين نتأمل الصدود الذي نلاقيه أحياناً في بعض الافراد او عند الجميع عن شوقي ، على الرغم من شاعريته الرائعة ، أعتقد أن مرجعه أن شوقي لم يمارس الأدب الكفاحي ، ولم يطابق بين فنه وبين أماني الشعب الا في فترات نادرة . إن الاديب في عصرنا يخون عصره إذا لم يكن سياسياً ... » .

وتاريخنا العربي القديم والحديث حافل بالأدباء الابطال الذين كانوا في طليعة المناضلين ضد الظلم والاستئثار ، والداعين الى الحرية والعدالة والاخاء . ولم يخشوا ، في سبيل تأدية رسالتهم ، ظلماً أو تضييقاً ، بل رفعوا أصواتهم مجلجلة دفاعاً عن حقوق العرب المسلوبة ، وذوداً عن وطنهم الذي ما فتئ الأعداء يغزونه طمعاً في خيراته ونهماً لاستثماره .

وهكذا تشع في تاريخنا الادبي أسماء مجيدة خالدة : فمن الكميت وابن

المقفع وأبي العلاء المعري قديماً ، الى الكواكبي والرصافي وجبران والأفغاني والريحاني والفاخوري حديثاً .

وقد تحدث الاستاذ أحمد أمين في كتابه « فيض الخاطر » عن جمال الدين الافغاني فقال « . . . فأتى جمال الدين ، فسخر الأدب في خدمة الشعب يطالب بحقوقه ويدافع عن حريته ، ويهاجم من اعتدى عليه كائناً من كان ، يبيّن للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم ، ويبصرهم بمن كان سبب فقرهم ويحرضهم أن يخرجوا من الظلمات الى النور ، وألا يخشوا بأس الحاكم، فليست قوته الا بهم ولاغناه الا منهم ، وأن يلحوا في طلب حقوقهم المغصوبة وسعادتهم المسلوبة ، فخرج للناس بأدب جديد ينظر للشعب أكثر مما ينظر الى الحاكم وينشر الحرية ويخلع العبودية ، ويفيض في حقوق الناس وواجبات الحاكم ... »

وإذا لم يكن ثمة شك في ارتباط الأدب بالسياسة ارتباطاً لاتنفصم عراه، فليس على الأدباء الا التطوع لممارسة ذلك النوع من السياسة الذي يستهدف تحرير الانسان ، اثمن شيء على وجه الأرض ، من نير الظلم والتحكم، ورَبْقة الفقر والجهل ، وكابوس الخوف واليأس ... وتهيئة عالم فاضل ، تنطلق فيه قوى الانسان المبدعة ، وتبزغ فيه الكفاءات دون قيد ، وتتجه الجماعات لتحقيق الخير والسلام والسعادة .

وقد يخيل لمن يعشقون المتألق تألق الضياء أو الناعم نعومة الزنابق ، أن الأدب الكفاحي يقصر عن بلوغ مستوى الفن الجميل أو جمال الفن ، حسبتهم يقولون : انه مهيض الجناح ، لايستطيع أن يحلق الى السحب الفضية والسماوات

اللازوردية ، حيث يعيش عشاق الفن هـــؤلاء ، متغافلين عن حقيقة واقعهم المريض وحياتهم البائسة .

وقد تسعفهم العزيمة فيعمدون الى جعبتهم ليخرجوا منها سهماً حديداً يسددونه الى الأدب الكفاحي ، متوهمين ان في الجعبة شيئاً ... فيزعمون ان الأدب إذا مارسمنا خططه وعينا اتجاهاته ، نكون قد حبسنا أنفاسه وقطعنا شرايينه ... فيحيا اليوم ويموت غداً ، ولا يستطيع أن يبلغ حد الخلود ...

ليعلم هؤلاء أن جمال الأدب وخلوده إنما هو في حمله مشعل الحق والخير ، ولواء الاخاء والحرية في عصره ، وفي تعبيره عن الآمال التي تجيش في الصدور ، والاماني التي تعتلج في النفوس والفكر التي تضطرب في الخواطر ...

الأدب الجميل الخالد هو ما ينبت في مجرى الحياة الانسانية الصاعدة ويساوقها في سيرها الدائب نحو مصير أفضل وغدٍ اسمى ...

أدب جديد

وأظن ان ماسقناه من حديث، يرسم لنا خطوط الأدب الجديد الذي نتوق اليه لشدة الحاجة الى ما يحفز النشاط ويثير الهمة في كفاحنا الطويل ونضالنا الشاق ، ضد كل ما يشوّه حياتنا ، ويعيق تطورنا في مضمار الرقي والمدنية .

ومن البداهة أن الأدب فنٌ يهدف كشف حقائق الكون والانسان وأنه مرآة الحياة التي تعكس أحداث الطبيعة والمجتمع . ولكن هذه المرآة يلزم ألا تكون منفعلةً بل فاعلةً ، لاتكتفي برسم صور الحياة ومظاهرها وأحداثها ، بل تنزع الى صياغة الحياة في شكل أجمل وصورة أكمل .

إذن مهمة الأديب النقد ، نقد الانسان وما ينشئ الانسان ، ذلك الكائن

السياسي والاجتماعي ، من نظم الحكم وطرق العيش ومنـــاهج الاجتماع وقيم الأخلاق ...

وهذا النقد ، إنما هو معول التهديم لكل مافسد وشاخ وتجمد من الأوضاع والقيم ، وبالتالي ، هو نقطة البدء لاشادة أوضاع أفضل وبنـاء قيم أرفع ... النقد هو سبيل التطور .

فليس طلبتنا الأدب الرومانتيكي أو أدب أحلام العاطفة وتصورات الخيال في بهرج من اللفظ ، وأناقة في التعبير؛ ولا الأدب الرمزي الذي يغيّب الفكرة السليمة والعاطفة الصادقة في تعاويذ من الرسوم وتمائم من الكَلِم ، ويلف الشعور والفكر في سحابة من التهاويل المنبجسة عن الوهم .

ولست أذهب الى أبعد من الرمزية ، الى الآداب الانطباعية والاستقبالية وفوق الطبيعية والوجودية ، وما ابتدعت مخيلة الأدباء المترفين من شتى الابتكارات السقيمة التي تمثل الانحراف السيء في الفكر الانساني ، بله الهزيمة من الواقع ، والفرار من الاحياء ، والخور في النفس المريضة .

فالواقعية هي الأدب التي نريد ، اذا شئنا أن نستعير الاسماء الغربية ، الواقعية التي ترسم الحياة الانسانية بشتى مظاهرها وأحداثها رسماً صادقاً أمينا . ولكن سرعان ما نتساءل : ماذا نفيد من تصوير الواقع الزاخر بالخطوب والآلام ، أو الحال البشعة التي يتخبط بها العديد الوافر من الناس ، والوضع الزري الذي يكتنف الاغلبية من سكان الأرض والقيود التي ما تزال الشعوب ترسف فيها؟ أليس في هذا التصوير ما يبعث القنوط ، ويخمد جذوة الامل في النفوس ؟

أجل قد يكون ذلك ، لو وقف الاديب عند حد التصوير ، وكان أدبـه

« آلة فوتوغرافية » تلتقط الرسوم بصورة عفوية دون أن تحدث فيها تغييراً ولكننا نطلب أن يستمر هذا الأدب الواقعي في مجراه متطلعاً الى الحاضر ، متفحصاً الواقع على أن ينظر الى المستقبل ، ويستشرف للبشر حياة أفضل ، وأن يهدي الناس الى الطريق الواصلة بين يومنا هذا الذي تعكر جوه السحب الدكناء وبين ذلك اليوم المشرق الرغيد .

أما الماضي ، فلا ضير أن يتحدث الأديب عنه ، بل من الخير أن يبسط لأهل زمانه ، وأبناء أمته مآثر آبائهم وأمجاد أجدادهم في الزمن الغابر . ومن حقنا ، نحن العرب ، أن نفخر بتاريخنا ، ونلمح بالتحدث عنه ، ومن حق ادبائنا أيضاً أن يفخروا به ويلحوا في التحدث عنه . فمن الثابت أن التاريخ ، إذا أحسن فهمه ، كان مثيراً للعزيمة ، وحاملاً على النشاط ، ودافعاً الى التضحية ، ومنيراً لطريق المستقبل ...

ولكن هذا الحافز ، سرعان ماينقلب إلى عبء ثقيل يرهق النفس ، ويشل القدرة ويبث اليأس ، إذا وقف الاديب او المطالع عنده ، أو شده اليه ، أو اعتبره الواقع الامثل ، إذ أن الاستغراق في التاريخ يسلخ الانسان عن الحياة في الحاضر ، وينقله على جناح الخيال ، الى عالم الامس . وهكذا ينأى المرء عن دنيا الواقع ليعيش في عالم التصورات ، ويبتعد عن الاحياء الساعين في الارض ، ليقرب من الاموات الثاوين تحت الثرى ، بل قل إن هذا الهائم في اطواء الزمن ، يتنازل عقله عن دوره الى ذاكرته ، ويتغلب عنده الانفعال على الفعل ، ويتقدم السكون الحركة .

ومهمة البحث عن الماضي عسيرة شاقة ، لأن حسن الاختيار شرط لا غنى عنه . ومن المؤسف الممض أن أدباءنا اليوم اذا ما عرضوا الى أحداث

تاريخ الشعب العربي ، لا يحفلون الا بسرد سير الملوك والامراء ، ووصف مباذلهم ومنازعاتهم ، منصرفين عن تمحص حياة الغفير من الناس والعديد من الجماعات في كدهم وسعيهم ، وأفراحهم وأتراحهم ، وفي ثوراتهم بالظلم والاستئثار ، وسيرهم في مجرى الاخاء والعدالة والحرية .

ويشير الدكتور طه حسين الى ذلك فيقول : « ما بال ثورة الزنج ، لم تحدث في حياتنا الأدبية مثلما أحدثته هذه الثورة الايطالية القديمة ، ثورة سبارتاكوس ؟ لقد سجل المؤرخون أحداثها كما سجل المؤرخون الرومانيون احداث الثورة الايطالية ، وقال الشعراء المعاصرون في الثورة كثيراً من الشعر ، كما تحدث الادباء الرومانيون من قبل في اللاتينية واليونانيـــة ، عن ثورة سبارتاكوس أي ثورة الرقيق في روما . . . فأما نحن فنعرض عن التاريخ العربي إعراضاً يوشك ان يكون تاماً ، لا نكاد نحفل منـه الا بعصر البطولة الذي نجمع كلنا على حبه والاعجاب به ... » .

وإنا لنرغب الى الأديب أن يرحب بالعلم واختراعاته ، وأن يحرر نفسه وسواه من آثار التفكير السحري والغيبي ، وأن يثور على الظلم والطغيان ، ويهلل لكل ظفر تحوزه الحرية في أية بقعة من بقاع الأرض .

ونمحض المحبة والاعجاب لذلك الأديب الذي يحترم الطفل كانسان كامل ومخلوق تام ، ويعامل المرأة كمواطن حر ، تربطها بالرجل روابط الثقة والود والتعاون ، ويعتبر الانسان أثمن من الأداة أو الآلة ، وأعز من المعدن أو المنتوج ، وانه الهدف دون سواه ، الذي يستحق أن تحشد جميع القوى الطبيعية والبشرية لتحقيق حريته وأمنه وسعادته .

وإننا لنتقدم بالتقدير والاكبار للأديب الذي ينادي بالعدل ضد الظلم ،

وبالاخاء دون البغضاء ، وبالسلام لابالعدوان ، وبالقومية المتفتحة النامية لا بالعنصرية المغلقة الهزيلة ، ويدعو لاطلاق الكفاءات وتجنيد المواهب لدى أبناء الشعب ، وبالتعاون المتكافئ القائم على الاخاء والمساواة بين جميع الأمم والأوطان.

وبعبارة أخرى ، فاننا نود أن يضاف إلى الواقعية شيء من الرومانتيكية ، تبعث الأمل في المظلومين المستعبدين ، وتبث الرجاء في قلوب المعذبين البائسين.

ونرغب إلى الأديب أن لاينظر إلى الأمور نظرة جامدة مفككة ضيقة بل عليه ان يعالج الحقائق الواقعية كوحدة شاملة مرتبطة مع علاقاتها في الماضي والحاضر والمستقبل ، فهو إن نظر إليها في أثناء تطورها فوجه أدبه وفنه لمساندتها في هذا التطور يكون أدبه أدباً واقعياً يواثم الحياة ، ويدعم التطور ويساعد المجتمع على الرقي والتقدم ...

نريد من الأدب أن يكون أثراً ومؤثراً ، وأن يصف « ما هو كائن » للدعوة إلى « مايجب أن يكون » حسب تعبير الفلاسفة . نريده ان يكون « بشارة » ولكن لا على أساس الحلم والوهم ، بل على اساس الحقيقة التاريخية والتطور الكوني والانساني ...

هذا هو الأدب الذي نأخذ به ، اذا شئنا أن نكون أمناء على تراث العرب الفكري والانساني ، وأوفياء لامجاد أجدادنا الأقدمين ، ومفاخر تاريخنا العظيم.

بهذا الأدب الحي الواضح المشرق ، وبسواه من الوسائل المادية والفكرية ، يستطيع شعبنا العربي العزيز أن ينتصر على خصمه ، ويفوز على ضعفه ، لينطلق الى أمام للمشاركة في المدنية الانسانية التي ساهم قديماً في بعثها وإنمائها ، ولتبوء مكانه من قافلة الشعوب الحرة في الطليعة .

فهرس الكتاب

صفحة	مادة الكتاب
١	المقدمة
٩	**ادب التشاؤم**
١٢	اتجاه الادب
٢٠	بيئة ابي العلاء
٣٣	تشاؤم ابي العلاء
٥٠	شوبنهور
٦٠	الوجودية
٦٧	رأي في الادب
٧٢	**ادب الكفاح**
٧٥	عرض تاريخي
٨٣	التيارات الادبية
٩٩	الحرب والثورة العربية
١٠٢	ادب الحرب والثورة
١١١	بين الحربين العالميتين
١١٥	النضال ضد المستعمرين

١١٩ الادب في الميدان
١٣٠ ادب الحرية
١٤٣ الادب تعبير كامل
١٥٠ نحو أدب جديد
١٥١ أزمة الادب
١٦١ مسؤولية الادب
١٦٦ الادب والسياسة
١٧٣ ادب جديد

جدول الاخطاء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٠	١٧	للاديب	للادب
٢٢	١	بطبيعتها	بطبيعتها
٢٤	٩	ليتحذونهم	ليتخذوهم
٢٧	٣	الاصرة	الآصرة
٣١	٥	اكباركم	اكبادكم
٣٢	١٣	الجاوا	الجارا
٣٦	٥	فانه	فانه
٣٧	٢	باعتقادي	باختياري
٣٧	٢	تجبير	تخيير
٣٨	٣	راغبين	راغبون
٤١	١٨	كراي	كرأي
٤٣	١٦	وفي	في
٥٥	٢	كل	—
٥٦	١٨	يطرأن	يطرأان
٥٧	١٥	متشأتم	متشائم
٦٤	٤	لى	الى

٦٥	١	ولا	لكن
٦٥	١٥	اصاف	اصاب
٨٥	٢	الشيح	الشيخ
٨٨	٢	اطباع	اطماع
٩١	١١	اقصار	اقطار
٩١	١٢	تداعي	تداعى
٩٥	٧	صفي الدين الحلي	ولي الدين يكن
٩٦	٦	اللتين	اللتان
٩٨	٧	عرب	حرب
١٠٣	٥	على	علي
١٠٥	٧	دم تركي	دماً تركياً
١٠٩	٢٠	منكم	منهم
١٢٧	٤	يكون	يكون السيف
١٢٨	١٠	مصرف	تصرف
١٣٣	١٧	ياحرية	خير تحيّه
١٣٦	١٩	فيلهكه	فيهلكه
١٥٨	١٣	البحث	البحت
١٦٠	١٥	تعيق	تعوق
١٦٧	١١	»	»
١٧٣	١٥	»	»
١٧١	١٤	عصر	عصره

808
الكريم
الادب
دان
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01020827

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
ET NUNC MANEANT ABUNDANTIUS HAEC
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

Kenneth

General Library